

مجلة شهرية تعنى بالبحوث الدينية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط
المغرب الأقصى

العدد التاسع

السنة الأولى

شعبان ١٣٧٧

مارس ١٩٥٨

الثمن ١٠٠ فرنك

دعوة الحق

له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء

المدير:
المكي بادو

رئيس التحرير:
عبد القادر الصحراوي

المراسلات
وزارة عموم الأوقاف

....

الاشتراك عن سنة ١٠٠٠ ف

الشيك البريدي
C.P - ٤٨٥٠٥٥

تلفون: ٣٢٧٠٣ - ٣٠٨١٠

صورة الغلاف

قصر الباهية بمراكش « القرن التاسع عشر » صورة ناطقة بروعة الفن المغربي .

تمثل الصورة بابا لاحدى حجرات القصر . وسقفا لاحد ابهائه . مزخرفا بالوان مختلفة زاهية





بيني وبينك

كتب الينا من العراق سعادة سفير المملكة المغربية بالعراق السيد الحاج الفاطمي بن سليمان يقول :

« ... ولم يكن قيامكم وسهركم على مجلة دعوة الحق الا دليلا آخر على هذا الاخلاص ، فهذه المجلة وان كانت بظهورها قد سدت ذلك الفراغ الادبي الذي تشكوه جميعا ، فانها الى جانب ذلك قد سارت في طريقها التوجيهي الاصلاحي بما تنشره من مختلف الابحاث سواء منها الادبية او الفلسفية او الدينية ، مما يساعد على التعرف على النهضة الادبية السائرة في المغرب .

وان كان شيء يقال عن المجلة من حيث تبويبها وموضوعاتها التي تطرقها باقلام مغربية ، فما هو الا الاعجاب من جانب الطبقة الفكرية في العراق التي تبارك هذا الاتجاه التثقيفي في نوعيته الجديدة وموضوعاته العلمية المجردة من كل تحيز ، وهو اعجاب قد دفع برجال الادب والثقافة في بغداد الى المساهمة واتحاف المجلة بنماذج في الابحاث في شتى نواحي الفكر .

واعتقد انكم ستتوصلون بمراسلات من حملة اقلام هذا البلد ، وبهذا تكون المجلة قد خرجت الى دائرة اوسع ، تلتقي فيها افكار كتاب شرقيين ، بافكار مغربية .

ولم يكن حرصي على زيادة نسخ المجلة الا رغبة في ان يطلع عليها اكبر عدد ممكن من جمهور المثقفين بالعراق والاردن .

ولعل في الاعداد التي تتوصل بها عن طريقكم او بواسطة وزارة الخارجية ما يحقق هذه الرغبة الملحة ... »

وكتب الينا من تونس الشاعر المبدع الاستاذ السيد عبد الكريم بن ثابت السكرتير الاول لسفارة المملكة المغربية بالجمهورية التونسية ، يقول :

« ... ومن هنا احببت اسم مجلة « دعوة الحق » ثم احببتها ثانيا بعد قراءتها ، ثم احببتها آخر الامر للصدى البعيد الذي تتركه في نفوس الادباء التونسيين ، القدماء منهم والمحدثين .

فقد حضرت منذ شهر تقريبا حفلة شيقة اقامها رئيس الجمهورية التونسية السيد الحبيب بورقيبة تكريما للشعراء ، وكانت الحفلة عبارة عن سوق عكاظ ، تنافس فيها الشعراء في القاء قصائدهم .

كنت اتحدث مع احد علماء الزيتونة الذي شكرني على « دعوة الحق » التي نرسلها اليه باستمرار ، وكان يسمع الحديث بعض الشخصيات التونسية ، فابدى الجميع اعجابهم بالمجلة ، وموضوعاتها الطريفة الشيقة والمليئة على السواء ، ولست اكتمك انها مقروءة باعجاب ، كما لا اكتمك انني مسرور بروعة اخراجها » .

تلك بعض الامثلة او النماذج للصدى الطيب الذي تتمتع به هذه المجلة خارج المغرب .

اما في داخل المغرب فقد بدات المجلة تشق طريقها بثبات وعزم ، وقد بدات تثير اهتمام الجميع ، وبدات ايضا تكتل حولها طائفة كبيرة من رجال الادب والعلم والثقافة والاصلاح .

كما انها وفقت ولو الى حد ، في اكتشاف كتاب جدد ، لم تعرف اسماؤهم من قبل ، ولكن ما تنشره لهم المجلة يدل على استعداد قوي وعزم صادق ، كما يدل على ان « الخامات الفكرية » ان صح هذا التعبير ، غير نادرة بالمغرب الى الحد الذي نتصوره او نشكو منه .

ان هذا الوطن الذي لا يشكو الجدب في ارضه ولا في عزيمة اهله، خليق ايضا الا يشكو الجدب في قرائح ابنائه وعقولهم ومقدرتهم على التفكير والتعبير ، وكل ما يتطلبه الكشف عن هذه القرائح ، انما هو شيء من الاناة والصبر ، وشيء من التشجيع وتمهيد الطريق امام المحاولات الجدية التي تنبيء عن مجهود فكري جاد ، وعن عقل نير ، وعزيمة صادقة .

الشيخ محمد عبده

موقفه من الشبه والمتشابه

للزعيم الأستاذ
علال الفاسي

المحاضرة التي القاها الزعيم الاستاذ علال الفاسي بطلب من جمعية العلماء المسلمين بفاس

هذا فصل واسع طويل ، وعلى الرغم من انه الجانب الذي يمثل اقوى كفاح قام به الاستاذ الامام وتلامذته في حياته وبعد مماته ، فان الذين ترجموا له لم يتناولوه بشيء من التفصيل ، بل ولا حتى بالقليل من الحديث ، لان الذين كتبوا عن عبده فريقان :

بعض المسلمين الذين كان يهمهم امر الاشادة بقدره وبمبادئه الغزيرة في العلم او في الفلسفة ، في الدين او في الوطنية ، وهؤلاء لم يتجاوزوا الحديث عن حياته وسلوكه وافكاره ومؤلفاته واعتقاداته وبعض صلاته الاجتماعية والسياسية .

وبعض الاوروبيين الذين لا يعنيهم من امره الا ما وصل اليه من هدم بعض القواعد او العوائد المعروفة في العالم الاسلامي، والتي يحسبها الغربيون تقاليد مقدسة، تضاهي ما للمسيحيين من تقاليد ، كافح في هدمها المصلحون زمنا طويلا .

ولكن الواقع ان عمل عبده لم يكن واضحا وعظيما في شيء، ما كان في العمل على دفع التهم الموجهة للاسلام، وتنقية عقول المسلمين واخلاقهم من بعض الصفات والعادات التي التصقت بهم ، فاصبحوا يعتقدونها من الدين وليست منه في شيء .

ولقد كان من الضروري للمسلمين ان تنهض ثلة من المصلحين ، يبذلون كل مستطاعهم لمحو العقد النفسية التي اوجدها في الشعب الاسلامي في كل انحاء الارض ، تضعضع مركزه السياسي والثقافي بين الامم ، وتداعي دول الاستعمار عليه من كل حدب وصوب ، ثم دعاواتها النشيطة لتحويل المسلمين عن الفكر في ما اصابهم ، وجعلهم يعتقدون ان اسباب ذلك كله ناشيء عن العقيدة الاسلامية واثرها في حياتهم الاجتماعية ؛ فالايمان بالقدر هو الذي اورث فيهم الخمول والكسل ؛ وانكار تاثير الاسباب في المسببات هو



الزعيم الاستاذ علال الفاسي

الذي جعلهم يبتعدون عن دراسة ظواهر الطبيعة واكتناه اسرارها ثم تسخيرها لخدمة المجتمع وخير الانسان؛ والجمع بين سلطتي الدين والدولة في الحكومة هي التي منعت الناس من ان يشعروا بالحرية الفردية ويعملوا على تكوين الشخصية الجديدة لحياة الانسان العصري؛

واتباع القرءان هو الذي يعوق التقدم الاقتصـــــادي وازدهار العمران ، اذ يمنع الربا ويحول دون تكتل راس المال ، ويمنع من وسائل التوفير والضمان الحديثين ، وهو الذي يعوق دون البحث عن تجديد في الشرائع وفي المعاملات ؛ والايمان بالاصول الدينية هو الذي يمنع العقل من التفتح والفكر من السبح في ميادين النظريات الجديدة التي لا تقف دونها اسوار الدين ولا استار الغيب ، الى غير ذلك من التهم التي كان يقصد منها قبل كل شيء تجريد المسلم من ثقته بنفسه ، ليتجه نحو الغرب ينشد في تقليده الروحي اولا ، ثم المادي ثانيا ، ما يرفعه لمستوى المستعمرين، حتى يكون شريكه في الحياة التي سيصبح الاول سيدها والمتحكم في امرها في كل ارجاء الارض .

لم تكن مهمة عبده اذا سهلة ، لا من ناحية العلم ولا من ناحية الواقع ، لان الجو الذي كان فيه العالم الاسلامي في عهده ، جو جهل وانحطاط وانحلال يحتاج العامل فيه الى ايمان قوي ، وصبر كامل وثبات ، ولان الاسلام الذي ورثته الاجيال الاخيرة لم يكن هو اسلام الكتاب والسنة والسلف الصالح ، ولكنه كان اسلاما غطت على حقائقه الخرافات وافسدت محاسنه الاوهام، والكتب المنتشرة في شأنه كانت كتبا ممزوجة بالحق والباطل ، مليئة بتحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، والمسلمون الذين يعيشون لا يمكن ان يكونوا شهداء على الناس لا باقوالهم ولا باعمالهم ولا باحوالهم، بل كانوا حجة على الاسلام بما يرتكبونه من الآثام الفردية والاجتماعية ، ولان الخصوم الذين كانوا يعملون لهدم الاسلام ومحو تقديسه في نفوس ابنائه كانوا يقومون بعملين ضخمين :

اسهلهما هو المهاجمة الظاهرة بالشبه والتهم ، وان كانوا يجندون لها كل ما وصل اليه الغرب من علم ورقي في الفكر وفي اساليب الجدل والاغواء .
واصعبهما هو ما يدرسونه في معاهد التربيــة والتعليم ، من غرس للجحود في الشباب وتثبيت لدعائم الجمود في الشيوخ .

ولكن عبده وشيعته كانوا جديرين بالمهمة التـي اضطلعوا بها ، والرسالة التي اختارتهم حيوية الامة الاسلامية لادائها ، ولئن كانوا قد وقعوا في بعض الاغلاط، او خرجوا عن الجادة في بعض الاحيان ، او جراوا بعض الذين لم يفهموا غاياتهم عن الانحراف عن الطريق ، فان ذلك لا ينقص من قدرهم ، ولا يغير شيئا من قيمة العمل العظيم الذي قاموا به في خدمة الاسلام والمسلمين في هذا العصر ، الامر الذي يرفعهم لمستوى علماء الاسلام المجددين وقادة فكره المصلحين .

ونحن لا نريد ان نتناول في هذا الحديث الجزئيات، الا بقدر ما يحتاج اليه التبيين من المثل ، وما يدعو اليه التفهيم من وسائل التقريب ، ولكننا سنحاول جمع اهم الاصول التي كانت عقدة الفكر ، ومحور الكفاح الذي قام به اولئك الابطال لتصحيح الفهم واصلاح الحال في الجبهتين الداخلية والخارجية .

فكر محمد عبده قبل كل شيء في حالة المسلمين، وما هم عليه من جهل وانحطاط وذل وخذلان ، وكيف استبدلوا سلطانهم خضوعا ، وانطلاقهم خنوعا ، وعرفانهم جمودا ، وايمانهم جحودا ،وشجاعتهم خوفا ، ونشاطهم كسلا . ثم بحث عن الاسباب ، هل هي في طبيعة الدين كما يزعم اعداؤه ، ام في امر الجنس كما يقول مستعمروه ، ام هي قضاء وقدر لا مرد له ؟

ولكنه ايقن بانه ليس هذا ولا ذاك ، وانما هي نواميس الكون التي قدر الله ان يسير عليها ، وطبيعة المجتمعات التي لا يمكن الانحراف عنها، ولو ان المسلمين اقاموا ما انزل اليهم من ربهم ، وما علمهم من امر دينهم ودنياهم ، لما اصابهم ما اصابهم ، ولظلوا كما كانوا قدوة العالم ، وغرة في جبين الانسانية .

ولكن الانحراف عن الدين نفسه ، لم يكن من طبيعة المسلمين ولا في الدين نفسه ما يحمل عليه ، ولذلك فلا بد من البحث عن الاسباب التي كونت الداء ليسهل العلاج ، ان ذلك لاشك ناشىء عن مؤامرات اجنبية ، قام بها الذين ضاقوا درعا بالسيطرة العربية والهيمنة الاسلامية ، من رجال الجنسيات والعصبيات المختلفة من العرب والعجم ، اولئك الذين حملهم مركب النقص ان يعملوا على افساد الدولة ، بالتسرب الى السلطان عن طريق التفوق في الاوساط الشعبية ، بواسطة الخرافات والتحزبات التي عملت لها الجمعيات السرية والحركات الهدامة طيلة عصور عديدة ، نجحت اثناءها في تحويل المسلمين عن فهم القرآن ودراسة السنة والاستكانة الى شتى الخوارق التي تكفي اصحابها كل وسائل العمل واسباب الحياة .

وشرح هذه الحقيقة هو موضوع المقال الرابع من كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية الذي كتبه الامام عبده في الرد على رينان وعلى مجلة الجامعة .

يقول الاستاذ الامام ص 121 من رسالة الاسلام والنصرانية : **(واما ما وصفت بعد ذلك من الجمود ، فهو مما لا يصح ان ينسب الى الاسلام ، وقد رايت صورة الاسلام في صفائها ونصوع بياضها ليس ما يصح ان يكون اصلا يرجع اليه شيء مما ذكرت ولا مما تنبا بسوء عاقبته ((رينان)) وغيره ، وانما هي علة عرضت على المسلمين عند ما دخلت في قلوبهم عقائد اخرى ساكنت عقيدة الاسلام في افئدتهم ، وكان السبب في تمكنها من انفسهم واطفائها لنور الاسلام من عقولهم هو السياسة كذلك) .**

ويذهب الاستاذ في شرح اثر هذا الجمود على اللغة والنظام والاجتماع ، وعلى الشريعة واهلها ، وعلى العقيدة . ثم يبين انعكاساته حتى على تلامذة المدارس العصرية ، اذ يجعلهم يجددون في التقليد وفي الجمود ، بما يسد آذانهم عن الحق وقلوبهم على صادق الوعي .

ولكن الاستاذ لا يتاخر عن التبشير بعد الانذار ، فيقرر ان الجمود علة تزول ، وان الامراض متى عرفت اسبابها سهل علاجها ، ولذلك يجب تشخيص الداء وتبيين الدواء والدعوة له والعمل على اقناع المرضى بتناوله ، وتلك هي طريقة الحركة التي حمل منارها بعد ان شيد قرارها .

وهذا العلاج ليس ضروريا لتحسين حالة الامة الاسلامية فقط واعادة مجدها الغابر ، ولكنه ضروري لاصلاح الانسانية كلها ، لان المسلمين مطالبون بان يكونوا بسلوكهم المثال الكامل للانسان، سواء في احوالهم الخاصة او العامة .



الشيخ محمد عبده

الم يكن اصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) كالنجوم بأيهم اقتدى الناس اهتدوا ؟ الم يقل الله سبحانه وتعالى : **(وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ؟ .**

نعم يجب ان يكون المسلمون حجة لله على الناس ، يهدونهم باحوالهم واقوالهم ، ويدعونهم بعدلهم واستقامتهم الى الدين والحق والهدي الصحيح ، فاذا زاغ المسلمون فستنقلب الاوضاع ويصبح الهادي ضالا، والنور ظلاما ، ويصبح المسلمون شهداء على الله وعلى دينه قبل ان يكونوا شهداء على انفسهم، ويصبح لغيرهم ان يتبجح بدعاويه وبمظاهره كما كان يتبجح المشركون الاثرياء في الجاهلية ، **(واذا تتلى عليهم ءاياتنا بينات قال الذين كفروا للذين ءامنوا : اي الفريقين خير مقاما واحسن نديا ؟ وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم احسن اثاثا ورءيا) .**

يصبح من الممكن لصاحب الحضارة المادية ، ان يقابل بين حفاة المسلمين وبائسيهم وبين الحالة التي يعيش عليها الفلاح والعامل في الامم الاخرى ثم يتساءل: اليست عقيدة (**المكتوب**) هي التي تمنع المسلم من ان يكون مثل اخيه الغربي في النشاط والكد والكسب ؟

يتنبه الاستاذ الامام لهذه النقطة بالذات ويريد ان يعرف المسلم وغير المسلم ، ان سلوك الامم لا يمكن ان يكون حجة ، على الاقل من جهة النظر ، على العقيدة التي تنتحلها ، فالمسيحية غير المسيحيين ، والاسلام غير المسلمين ، ولذلك يفرض في آخر رسالة التوحيد ص 195 سائلا يوجه اليه سؤالا يعرض فيه للمفارقات التي تتراءى بين اختلاف المسلمين ودعوة الاسلام للاتفاق ، بين توحيد الاسلام واشراك المسلمين ، بين مخاطبة القرآن للعقل وكفر المسلمين به ، بين الجد والعمل المدوحين في الاسلام وبين الكسل والخمول اللذين يخيمان على المسلمين، بين الفضائل المتعددة التي جاء بها الدين المحمدي وبين الرذائل التي القت بكلكلها على المسلمين ، يعرض ، ذلك السؤال فيوافق على محتوياته ويجيب في صدق واخلاص (ص 200 : **كلامنا اليوم في الدين الاسلامي وحاله على ما بيناه ، واما المسلمون وقد اصبحوا بسيرهم حجة على دينهم ، فلا كلام لنا فيهم الآن ، وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر ان شاء الله) .**

ويقول الاستاذ رشيد رضا : ان الكتاب الآخر الذي عناه الاستاذ الامام هو الاسلام والنصرانية ، ولكن الواقع ان عبده عاد لهذا الموضوع في كل دروسه واقواله وكتاباته ، اذ انه الفكرة التي عاش لها والمثل الاعلى الذي صرف نشاطه كله في سبيله .

ارجاع المسلمين الى الدين الصحيح ، وتقويم ما اعوج من اخلاقهم ، هو خير سبيل للرد على الشبهات التي يعرضها المرجفون على الاسلام ، مستمدين من حالة المتدينين به ، وذلك لا يتم قبل كل شيء الا بالدعوة الى النظر ، ومقاومة التقليد ، لان اول صفة يجب ان تحيا عند المسلمين ، هي ان يعودوا الى ما وصفهم الله به : **(الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه) (ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين) .**

يجب ان يعود المسلمون الى العقل ، الى الفكر في ملكوت الله ودراسة احوال البشر ، وتطورات الاجيال، والى النظر فيما آلوا اليه من حالة ، والبحث عن اسبابها وطرق علاجها ، الى امتحان ضمائرهم ازاء النقائص التي حلت بهم .

ان الثقة بالعقل هي سبيل الخلاص للمسلمين ، من جمود الماضي ومن جحود المستقبل ، والحق ان الدعوة الى الفكر والنظر دعوة اسلامية صميمة ، صرح بها القرآن في عشرات الآيات، ونطقت بها السنة في عديد الاحاديث ، وهي التي علمت طبيعة الحضارة الغربية التي ما كانت تقبل شيئا على علاته ، ولكن بعد النظر والتمحيص وتقليبه على جوانبه .

يقول عبده في رسالة التوحيد ص 158 : **(صاح القرآن بالعقل صيحة ازعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ، كلما نفذ اليه شعاع الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم : « نم ، فان الليل حالك ، والطريق وعرة ، والغاية بعيدة ، والراحلة كليلة ، والازواد قليلة)**

(صرح في وصف اهل الحق بانهم : (الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه) ، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال ، من غير فرق بين القائلين ، لياخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤساء فانزلهم من مستوى كانوا فيه يامرون وينهون ، ووضعهم تحت انظار مرؤسيهم ، يخبرونهم كما يشاءون ، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، الى ان يقول :

عاب ارباب الاديان في اقتفاء آثار ءابائهم ووقوفهم عندما اختطته لهم يد اسلافهم وقولهم (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثرهم مهتدون) .

فاطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، ورده الى مملكته يقضي فيها بحكمه وحكمته) .

واذن فعبده يقرر طبيعة الاسلام وصلتها بالعقل والنظر ، لانه يعتمد عليهما في معرفة الله وفي غيرها من الامور ولا يرى هناك تناقضا بين العقل الرجيح والدين الصحيح بحال .

وما دام القرآن يستنهض بالعقل البشري في الدلالة على وجود الله ، وعلى ان الانسان لم يخلق عبثا ولا ترك سدى ، وعلى انه لابد من دار عمل ودار جزاء . ما دام القرآن يفعل كل ذلك فمعناه ان الانسان قادر على الوصول الى معرفة الله بالعقل ، وقد صرح عبده في الرسالة بهذا المعنى اذ قال : **ان كل نظر صحيح لابد ان يؤدي الى التوحيد .**

وحينما تصدى (فرح انطون) لاتهام المسلمين باضطهاد اهل العلم ، رد عليه الشيخ في فصول عديدة نشر بعضها في كتاب **(الاسلام والنصرانية)** مبينا انه لم يقع اي اضطهاد في تاريخ الاسلام الطويل باسم الدين ولا باسم الفكر او بالاحرى بدافعهما ، وان ما وقع من تقاتل بين الطوائف المسلمة ، لم يكن مصدره الا البواعث السياسية والتنافس على الحكم . وقارن بين موقف المسلمين من الحضارة والعلم ، وموقف المسيحية منها ، وفصل ما قامت به محاكم التفتيش في الاندلس مع المسلمين واليهود ، وما قامت به الكنيسة مع خصومها في روما الشرقية وفي بلدان الاصلاح الديني عند قيام البروتيستانية ، ثم بين ضيق فكر هؤلاء المصلحين انفسهم ، ومقاومتهم لكل المبتكرات العلمية ، فموقف عبده من تاييد العقل واعطائه السلطان المطلق في جميع الميادين التي تعد من اختصاصاته ، موقف واضح بين.

ولكن الى اي حد يصل هذا الايمان بالنظر والى اية درجة ترتقي هذه الثقة بالعقل ؟ يغرق بعض المعجبين بالشيخ عبده ، فيريد ان يجعل منه لا مستنجدا بالعقل لتحرير الفكر من الخرافات واعادته الى دائرة التفكير في حدود الاصول المتيقنة في الاسلام ، ولكن حر الفكر بالمعنى الغربي للكلمة ، ومن هؤلاء صديقنا **(الدكتور ابن عثمان)** الذي يصرح في كتابه عن الشيخ ، بان له مجهودات فيما وراء الطبيعة تضاهي ما قام به سبينوزا ، وانه سبق للتمهيد (للفكر الحر)

Libre pensée وقد قارنه بباسكال تارة وديكارت وكارليل اخرى .

والحق ان هذه المقارنات خطيرة جدا ، اذا كنا نفهم من كلمة (الفكر الحر) ما يقصد اليه الغربيون ، وهو التحرر من كل المعتقدات ، الناتج عن الكفاح ضد الديانات الذي قام في اوربا طيلة القرنين الثامن والتاسع عشر ، فمعنى هذا ان محمدا عبده كان مدرسة تخرج على الاسلام ، وتدعو الى الفكر المجرد عن كل استناد الى الدين ، وهذا ما لم يقل به الاستاذ الامام الذي ما كان يعمل الا لتصحيح الاوضاع وارجاع الاشياء الى نصابها .

فالعقل الذي يدعو اليه عبده هو العقل الذي نادى به القرآن وقامت عليه الحضارة الاسلامية ، وهو مطلق كما صرح به الشيخ نفسه في رسالة التوحيد ، ما دام المرء لم يهتد الى الايمان بالله ، فاذا آمن به فقد وجب عليه ان يجعل في حساب فكره ما جاء منه على السنة رسله من الاسس الصالحة التي لا يمكن لعقل ولا لقلب ان يرقى بدونهما .

على ان عبده يقرر ان العقل لا يمكنه ان يستبد وحده بالوصول الى ما فيه سعادة البشر **(ان العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الامم بدون مرشد الاهي ، كما لا يستقل الحيوان في درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ، بل لابد معها من السمع لادراك المسموعات مثلا ، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات، والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لاجله ، والاذعان لما تكشفه له من معتقدات وحدود اعمال . كيف ينكر على العقل حقه في ذلك ، وهو الذي ينظر في ادلتها ليصل منها الى معرفتها وانها آتية من قبل الله) .**

واذن فهنالك تضامن بين العقل وبين الدين ، يستنجد كل واحد منهما بالآخر ويستند اليه .

نعم يصح ان يقارن عبده بديكارت وامثاله من الفلاسفة الغربيين الذين كانوا يستدلون على وجود الله بوحدة الطبيعة العالمية ، على اعتبار ان الله هو المدبر او العاقل الاول ، الذي يجعل هذا الكون على اختلاف انواعه منتظما كالشخص الواحد ، فمركز الله من العالم مركز الروح من البدن ، والانانية هي التعبير الانساني عن هذا الوجود ، لان الانسان صاحب الفكر الذي يمتاز به عن كل المخلوقات . وهو ما جعل ديكارت يقول : **(انا افكر اذن انا موجود)** واذا كان المدرك ــ بالفتح ــ يتعدد فالمدرك دائما واحد .

ونحن لا نعني ان عبده او غيره من السلفيين يوافق هؤلاء الفلاسفة على تشبيه المركز الالهي في العالم بمقام الروح من الجسد ، فذلك ما يوحي بفكرة الحلول والاتحاد او وحدة الوجود العزيزة على فلاسفة المتصوفين من المسلمين ، والتي ينكرها السلفيون انكارا كاملا ، وانما نريد ان النظر عن طريق التفكير في الكون ، وكونه لابد له من مدبر ، والوصول عن طريق ذلك وعن طريق التأمل الانساني في ذاته ، الى وجود كائن اعلى واجب الوجود لما كل موجود ، هو ما يتفق مع التوجيه القرءاني وما يرمي اليه محمد عبده .

وعبده بالحاحه على استعمال العقل ، يريد ان يقاوم اتجاهات الحادية اخرى، هي اتجاهات **(اوجيست كونت)** ومدرسته التي تسمى (بالفكر الايجابي) او الوضعي ، والتي تقول : ان كل شيء معقول لابد ان يؤيده شيء محسوس، لان (كونت) يزعم عدم صحةالانتقال من وجود الادراك في الانسان الى وجود صاحب الادراك حسب استنتاج ديكارت ، لان الادراك الموجود في الذهن انما يدل على وجود صاحبه (اي المدرك بالكسر) في الذهن ، ولا يدل على وجوده في الخارج ونفس الامر .

وقد اجاب (الشيخ مصطفى صبري) في الجزء الثالث من كتابه **(موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين)** ص 67 على شبهة كونت ، **بان اصل الخطأ عنده انه يفهم ان كون الادراك موجودا ذهنيا لا يمنعه من ان يكون موجودا في نفس الامر ايضا ، بل ان الكلام في الادراك الواقع فعلا وكون هذا الادراك في الذهن ، انما هو ناشيء من ان المحل اللائق بالادراك الواقع فعلا هو الذهن ، لا من عدم كونه موجودا عينيا ، فهو موجود ذهنيا وعينيا ، ولا جرم ان وجود هذا الادراك يستلزم وجود المدرك (بالكسر) وجودا عينيا ، وفي محله اللائق به وهو خارج الذهن ، اذ الادراك الواقع لا يكون فعل المدرك الذي يوجد في الذهن ولا وجود له في الخارج .**

على ان كونت لا ينكر وجود الله وانما ينكر العلم بوجوده ، انه يهدم الادلة العقلية ، محاولا اثبات دليل سماه بالعقل العملي ، او دليل السلوك ، او الوجدان ، او الاخلاق ، فنفى العلم بوجود الله ، واثبت الايمان به، مؤيدا ذلك باسباب اخلاقية ، اي كما انه لا يمكن اثبات وجود الله عن طريق العلم والتجربة كذلك لا يمكن اثبات نقيضه .

واذا نحن سايرنا كونت ، لم يعد عندنا اكثر من الشعور بالحاجة الاخلاقية الى الايمان بالله لاثبات وجوده ، واصل الخطأ في هذا ان الله الذي هو من شواغل الباطن الانساني يحول الى الميدان الخارجي ، ليخضع الى تجارب العلم وفروضه ، وطبعا فان الملين قاطبة لا يعتبرون مسائل الروح والايمان من اختصاص العلم ، وانما يعتبرونها من اختصاص العقل والفكر التي هي مصدر الانسانية تصورا وتصديقا، اذ حتى التجارب لا يمكن ان تعتبر الا اذا تصورها العقل وصدقها .

وهذا ما يفسر اهتمام عبده بالدفاع عن علم الكلام ، وكتابة رسالة التوحيد لاحياء مناهج المسلمين في النظر والبحث ، على اعتبار ان العقل هو السبيل الوحيد لارتفاع الانسان من درك الحيوانية الى فطرة الانسانية.

وقد وقع المرحوم **(احمد امين) (والدكتور هيكل)** في خطأ تحضير البراهين العقلية ، مغترين بالمذهب الايجابي ، حتى قال هيكل في مقدمة كتابه **(حياة محمد) : ولقد قام بعض المسلمين في ظروف مختلفة ، فحاولوا ادحاض (هكذا) مزاعم اولئك المتعصبين من ابناء الغرب ، واسم الشيخ محمد عبده من انصع الاسماء في هذا الصدد ، لكنهم لم يسلكوا الطريقة العلمية التي زعم اولئك الكتاب والمؤرخون الاوربيون انهم يسلكونها ، لتكون لحجتهم قوتها في وجه خصومهم .**

فعبده في نظر هيكل لم يسلك الطريق العلمية ، اي الايجابية التي جاء بها (كونت) ولكنه سلك الطريق

العقلية ، ولذلك لم ينجح فى نظر هيكل ، وهذا اقرب ما يكون من التقليد للغرب والتنازل عن حق الفكر فى الامور والحكم عليها ، فالنظرية الايجابية وان كانت هدمت المناهج العقلية الاسلامية وغيرها ، الا انها لم تنكر ان الحكم النهائي فى واقع الامر انما يتم بالعقل ، كما ان المذهب العقلي لم ينكر التجارب فى الامور المادية التي لا يمكن ان تدرك الا عن طريق الحس ، ولقد قال ستيوات ميل فى منطقة : **(انه وان كان هنالك بعض تجارب غير منحلة وغير منتقضة ، فليست اي تجربة غير ممكنة الانحلال والانتقاض) .**

وقد بين الاستاذ الكبير **(عباس محمود العقاد)** فى كتابه عن (الله) خطأ الفكر الايجابي ، موضحا ان العلم لا يشتمل على اكثر من فروض تقبل ثم ترفض حين يترجح غيرها ، وانه ليس فى العلم حقيقة ابدية يمكن اليقين فيها والايمان بها .

لست اريد ان اناقش النظريات العلمية او الفلسفية ، وانما اريد أن اوضح معنى دفاع الشيخ عبده



صورة للسيد جمال الدين أهداها الى الشيخ محمد عبده وكتب عليها : ((تذكرة للشيخ الفاضل محمد عبده، يتذكر بها ما حوته الصدور ، واستقرت عليه القلوب)) سنة 1885

عن العقل . وانه لا يرمي لاكثر من تحديد المناهج الاسلامية فى المنطق وفى الكلام ، واذكاء النفوس لاستعمالها ، وتنقيح ما يلزم تنقيحه منها ، والزيادة فيها ، والسير على منهج الاسلاف فى دراسة نظريات الآخرين ومذاهبهم ، واخذ ما يصح منها وبلورة كل ذلك فى فلسفة اسلامية جديدة تدفع الشبهات وتقي المسلمين من العثرات .

واذا كان العقل صديق الدين عند المسلمين ، فهل يمكن للدين ان يأتي بما فوق العقل ؟ .

يجيب علماء المسلمين ومعهم محمد عبده بانه ليس فى الاسلام ما يناقض العقل ، او بالتالي ليس من الممكن ان يامر الدين بشيء يعتبر فى نظر الفكر من قبيل المستحيلات العقلية .

ومن هنا جاء رفض الاسلام للقول بالتثليث وتعدد الآلهة ، وان يلد الالاه او يولد ، وغير ذلك مما يستلزم تناقضات عقلية تشبه الجمع بين الضدين ، وتعدد الوجود فى المكان الواحد فى الوقت الواحد .

وقد اجاد عبده فى مختلف ابحاثه الموضوعات التي تناولها من هذا القبيل ، وان كان قد اخطأ فى بعضها ، كانكار استحالة التسلسل من الجهة العقلية .

وهنا تعرض لنا مسالة ذات اهمية خطيرة بالنسبة لجميع الديانات التي تقوم على اساس الايمان بالغيب ، هل الامر الخارق ممكن الوقوع ام لا ؟

اما الخارق للعقل فهذا ما بينا استحالة وقوعه ، واما الخارق للشرع فهو ممكن الوقوع ومحكوم عليه من طرف الدين بما يستحقه ، واما خرق العادة فهي المسالة التي تقف عندها ابحاث المتكلمين فى جميع الشعوب ، وقد عقد الشيخ عبده لها فصلا فى رسالة التوحيد قال فيه ص 84 : **(المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا ، فان مخالفة السير الطبيعي المعروف فى الايجاد ، مما لم يقم دليل على استحالته ، بل ذلك مما يقع ، كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الاكل مدة لو لم ياكل فيها وهو صحيح ، لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف) .**

ويقول بعد ذلك بقليل : **(ان المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة ، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده ، لان النبي يستند اليها فى دعواه انه مبلغ عن الله) .**

لكن ماذا يقصد عبده بالتحدي ؟ هل ان يقول النبي : دليل نبوتي اني افعل كذا مما لا يعتاد البشر فعله لم يفعله ؟ ام مجرد الاقتران بدعوى النبوة ؟ .

نرجح الشق الثاني بدليل قوله : **(فمتى ظهرت المعجزة وهي مما لا يقدر عليه البشر ، وقارن ظهورها دعوى النبوة ، علم بالضرورة ان الله ما اظهرهـــا الا تصديقا لمن ظهرت على يديه، وان كان هذا العلم فديقارنه الانكار مكابرة ، وسنعود بعد لهذا التدقيق لاننا فى حاجة اليه) .**

ثم يبين الشيخ محمد عبده ص 108 ، امكانية وقوع الوحي واطلاع الله على غيبه من يرتضيه مـــن رسول او ولي كل حسب استعداده وارادة الله لاكرامه (والله اعلم حيث يجعل رسالاته) .

واعتراف الشيخ عبده بانكشاف الغيب لغيـــر الانبياء ، دليل على انه يقول بوقوع الخارق الذي يسمى بالكرامة للاولياء ، وهذا ما يشهد له قوله فى الرسالـــة ص 113 :

(اما ارباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الانبيــاء ، ولكنهم راضوا ان يكونوا لهم اولياء وعلى شرعهـــم ودعوتهم امناء ، فكثير منهم نال حظه من الانس ، بما يقارب تلك الحال فى النوع او الخبر ، لهم مشارقة فى بعض احوالهم على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال ، لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يتحدث به عن الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ومـن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف) .

ولكن عبده يعود فيبحث مسألة الكرامة ص 204 فيحكي انكار ابي اسحاق الاسفرايني والمعتزلة الا ابا الحسين البصري لوقوعها ، ويذكر ان جمهور الاشاعرة يقرون بها ، محتجين بما جاء فى القرآن من قصة الذي عنده علم من الكتاب ، وقصة مريم عليها السلام ، وقصة اصحاب الكهف .

ويحتج الآخرون بان ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات، ورد هذه الحجة ، قائلا بانه لا محل للشبهة فى المعجزة ، لان هذه تقع مقارنة لادعاء النبوة ، كما رد احتجاج الاولين بقصة اهل الكهف ، لان الله عدها من آياته فى خلقه ، واما قصة مريم وءاصف فقد تكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه فى عهد الانبياء ، ثم حقق المناط ، مبينا ان الخلاف انما هو فى وقوع تلك الخوارق ، اما امكان وقوعها فهو شيء مجمع عليه من سائر المسلمين.

ونحن لا نوافق عبده على ان قصة مريم ليست من قبيل الكرامات ، لان وقوعها فى زمن الانبياء لا يعكر على ذلك ، ومريم فى عداد الصديقات ، وقد قـص القرآن من خبر خضر ما يدخل فى ذلك المعنى ، فالذي لا شك فيه ان القرآن يؤكـــد وقوع الخـــوارق للانبياء وللاولياء معا ، ولكن الشيخ عبده معــذور فى موقفه هذا ، لانه يريد ان يخلص به الى تحذير المسلمين من مختلف الدجاجلة الذين ما فتئوا يصطنعون الصلاح ويدعون الخوارق ، حتى شغلوا عقول الناس بمغيباتهم عن الفكر والدرس والتبصر فى ملكوت الله ، ولذلـك يقول : **(اين هذا الاصل المجمع عليه مما يهذي به جمهور المسلمين فى هذه الايام ، حيث يظنون ان الكرامـــات وخوارق العادات اصبحت من ضروب الصناعات)**

والذي فات الشيخ محمد عبده تبيانه ، هو ان الكرامات لا تطلب ، ولا يشعر من وقعت له بانها ستصدر عنه ، وانما هي اغاثة من الله او اكرام لمن يشاء مـــن عباده ، يظهرها كيف يشاء وحيث يشاء ، وفى الوقت الذي يريد ، ولذلك كان العارفون ينهون عن اتبـــاع الكرامات وتلمسها .

قرر عبده امكان وقوع الخوارق ، واعترف بان المعجزة من براهين النبوة ، ولكنه حينما كان يناقش الاستاذ ف فرح انطون) فى اتهاماته الموجهة الى الاسلام، والتي منها اضطهاد المفكرين وعدم تسامح الدين مـع مخالفيه ، احب ان يقارن بين المسيحية والاســلام ، بدعوة الاخير الى العقل واعتماده عليه ، وتجاهل رجال الكنيســة ذلك واعتمادهم على العجائب وحدها .

وعبده وان كان حسن النية فى هذا المسلك ، الا اننا لا نوافق عليه لامرين :

اولا : ان الله نهانا عن ان نفرق بين احد من رسله، وبين لنا القرآن ان الدين عند الله هو الاسلام ، هو دين عيسى وموسى وابراهيم ومحمد وغيرهم من الرسل والانبياء ، والمعجزة لا ياتي بها الرسول من عنده او من ذاته ، ولكنها بامر من الله .

حقيقة ان التبشير بالعقل الذي جاء به الاسلام كان ارقى درجات الدعوات التي وصلت اليها الانسانية، ولكن ذلك لا يعني التنقيص من برهان المعجزة فى اي عهد من عهود النبوة .

ثانيا : لان هذا الاسلوب مهد السبيل لبعـض المتفرنجين لانكار وقوع معجزة لنبينا (صلى الله عليه وسلم) غير معجزة القرآن .

لقد كان عبده ابعد الناس عن هذا الادعاء ، وكان جمال الدين اشد بعدا منه حين كان يستحسن قول البصيري :

لم يمتحنا بما تعيا العقـول بـــه
حرصا علينا فلم نرتب ولم نهـــم

فهما لم يقصدا لاكثر من تبرئة الاسلام من تكليف العقل الانساني بالايمان بما لا يقبله ، اي بتصديق الخوارق العقلية ، أما الخارق العادي فهما يقرانه ، ولا محيد لاي موءمن عن التصديق به .

اما هؤلاء المتفرنجين الذين مهدت لهم السبل ، فقد زعموا ان محمدا لم يات بغير المعجزة العقلية التي هي معجزة القرآن ، وفي مقدمة هؤلاء الدكتور هيكل في كتابه **(حياة محمد)** اسمعه يقول ص 44 : **(لقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا على أن يقدر المسلمون انه بشر مثلهم يوحى اليه ، حتى كان لا يرضى ان تنسب اليه معجزة غير القرآن ويصارح اصحابه بذلك)** وقد اكثر من هذا المعنى في كتابه ، وايده المراغي ورشيد رضا .

والحقيقة ان محمدا عليه السلام جاء بمعجزات غير معجزة القرآن التي هي اعظم المعجزات ، وقد سجل كتاب الله نفسه ذلك ، الم يحدث القرآن عن اسراء الله بنبيه من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي بارك الله حوله ليريه من آياته؟ الم يقص القرآن علينا قصة اصحاب الفيل وما وقع لهم من الطير الابابيل التي ترميهم بحجارة من سجيل ؟ وما كان ذلك الا ارهاصا لميلاد الرسول عليه السلام وايلافا لقومه ؟ الم يتحدث القرآن عن امداد الله رسوله في بدر واحد بالملائكة مسومين يقاتلون معه اعداء الدين ؟ الم يقل عليه السلام انه نصر بالرعب مسيرة ثلاثة ايام ؟ الم يتحدث عليه السلام عن المعراج والصعود الى السماء ؟ الم ترد احاديث مختلفة عن تكثير الطعام وابراء المرضى وغير ذلك مما صرح العلماء بان مجموعه ثابت ثبوت التواتر المعنوي ؟

واذن فما الموجب لانكار ان يكون للرسول عليه السلام معجزة وهي ليست بدعا من اخلاق الرسل ولا مما جاءوا به ؟ ولماذا نؤمن بمعجزات موسى وعيسى وغيرهما من الانبياء ولا نؤمن بمعجزات محمد ؟ .

ان كان الخوف من انتقاد الغربيين كما يزعم الدكتور هيكل ، فمحمد والاسلام لا يسلمان من انتقاد المغرضين منهم بحال . اما المخلصون فهم يقدرون ان يقع في الاسلام ما يقع في غيره من الديانات ، بل اؤكد انهم اذا تيقنوا بان محمدا لم يات بخوارق لا يعتبرونه اكثر من عبقري عربي ، فاق اهل عصره في التشريع والتقنين وتدبير الحروب . (قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادري ما يفعل بي ولا بكم) .

حقيقة ان الاسلام اراد منا ان لا نتخذ الخوارق سبلا نتطلبها ، ولا ان نرى فيها اكثر من نوع من انواع البراهين الحسية التي جعلها الله لانبيائه ، ولا ان نخرج بها من حدود الامكان العقلي .

ولذلك اجاب الله على لسان نبيه الذين تطلبوا اكثر من ذلك ان تسقط السماء كسفا عليهم او ان يصعد الى السماء فينزل عليهم كتابا يقراونه منها : **(سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا) وقال : (قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) .**

اما شبهة ان الخوارق تقتضي ابطال الكون ونواميسه التي قال الله عنها انها لا تتبدل ، فيجيب عنها عبده بان الله قادر على ان يجعل من نواميسه ما تندرج فيه تلك الخوارق **(فان قيل : ان ذلك لابد ان يكون تابعا لناموس طبيعي ، قلنا ان واضع الناموس هو موجد الكائنات ، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما في الامر اننا لا نعرفها ، ولكننا نرى اثرها على من اختصه الله بفضل من عنده ، على اننا بعد الاعتقاد بان صانع الكون قادر مختار ، يسهل علينا العلم بانه لايمتنع عليه ان يحدث الحادث على اي هيئة ، وتابعا لاي سبب اذا سبق في علمه انه يحدثه كذلك) .**

واما ادعاء رشيد رضا بان النبي عليه السلام لم يتحد احدا بغير القرآن ، معتمدا على ان الفرق بين المعجزة والكرامة هي ان الاولى تكون مقرونة بالتحدي، فهو مجرد دفع لا يقوى على الثبوت ، لان المتكلمين الذين اصطلحوا على تلك التفرقة لم يقصدوا غير ما سبق ان نقلناه عن الاستاذ الامام من اقتران ادعاء النبوة بوقوع المعجزة ، وقد نص الدواني على انه لا يشترط في المعجزة صريح التحدي ، والذي يظهر لي ان المقصود من التفرقة هو منع غير النبي من ادعاء الاتيان بالخارق مع ادعاء الولاية ، لان ذلك يتنافى مع طبيعة الصلاح الذي يقوم على التواضع لله وللخلق ، ولولا ان النبوة تحتاج لبرهان يسندها لما اباح الله لانبيائه ان يظهروا خوارقهم وان اكرمهم بها .

واذا كانت الخوارق تدخل في قدرة الله ، فمعنى ذلك ان الخالق مطلق التصرف في كونه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، واذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون ، وتلك هي عقيدة الاسلام التي يقررها الاستاذ في رسالة التوحيد ص 53 وما بعدها، وقد اورد الاستاذ فرح انطون في مجلة الجامعة شبهة على هذه العقيدة ، هي الشبهة التي اعتاد فلاسفة العصور الوسطى توجيهها لسائر الديانات لانها جميعها متفقة على ان الله هو الفاعل المختار لا يسال عما يفعل وهم يسالون .

وقد بين الشيخ محمد عبده في رده على الجامعة، ان هذا الاصل لازم لوجود الخالق ، لان هذا العالم اذا كان موجودا بعقل موجد فموجده هو خالقه ، وهو

مطلق التصرف ، بمعنى انه يختار ما يخلق على الوجه الذي يخلق ، ثم بين ان المتكلمين وان اتفقوا على ان الله مختار ، انقسموا الى فريقين عظيمين ، فالقدرية منهم ويسمون بالمعتزلة ايضا قالوا ان الخالق وضع للكون نظاما تنطبق اصوله على مصالح المخلوقين ، واودع فى المخلوقين قوة او قدرا تصدر منها آثارها بطريق التوليد او السببية او بطريق الارادة والاختيار ، فهذا فريق من المتكلمين لا يخالفون الفلاسفة فى اقوالهم ، وقد بقي من اهل هذا المذهب طائفة الشيعة الامامية والزيدية الذين لا يخالفون المعتزلة فى هذه الاصول ، والفريق الثاني الذي يرى اسناد الآثار الى الخالق مباشرة لم يقطع العلاقة بين الاسباب الظاهرة ومسبباتها ، بل قال ان الله يصدر وجود المسبب عند وجود السبب .

شرح عبده فى غير ما وضع من ابحاثه اختيار الله فى افعاله وقضائه ، بوجود نظام فطري يشتمل على نواميس كونية كتب على نفسه سبحانه ان يسير العالم بمقتضاها ، وهي التي لا تجد لها تبديلا ، ولكنه لم يقف موقف الرد على متفلسفة الغرب الذين يريدون التنقيص من قدر الاسلام بسبب هذه العقيدة ، انهم يقارنونها بالقانون الطبيعي او طبائع الاشياء التي يزعمون انها من رقي المسيحية ، وعدم اعتقادها سر تأخر المسلمين ، والواقع ان القوانين الطبيعية هي النظام العام ، وهي قوانين موضوعة يمكن تغييرها قطعا ، لانها ليست ناشئة من طبائع الاشياء نفسها كما يزعمون ، ومعنى تسميتها بالقوانين انها قضايا كلية مطردة الصدق اطرادا عاديا غير بالغ مبلغ الضرورة والواجب ، فتخلفه ليس مستحيلا عقليا ، والا لما كان هناك شيء يصح ان يقال له : قوانين طبيعية ، ولذلك انكر الفيلسوف هيوم العلم .

قال الشيخ مصطفى صبري ص 30 من ج 4 من كتابه (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين) : لقد اجتهد كونت فى ان يجعل قوانين العلم ، اي العلم الحديث المبني على التجربة ، ضرورية فلم ينجح . وقال اميل سيه : (ان العلم مع كونه ترقى كثيرا فى مطالعة الطبيعة لم يثبت فى وقت من الاوقات ان القوانين الطبيعية قوانين ضرورية هندسية) يعني انها ليست مستحيلة التغير . وقال (ليبنتز) : ليست القوانين الطبيعية عندية محضة كما ادعى بافل ، ولا ضرورية بالضرورة الهندسية . وقال (هانري بوانكاريه) فى كتابه (الفرضية والعلم) القانون التجريبي عرضة دائما للتصحيح ، فهو لا يزال يتوقع تبديله بقانون اقوى منه) وقال الفيلسوف مالبرانش : (انما نرى نحن توالي الحوادث ولا نرى الرابطة التي تربط احد الطرفين بالآخر ، فلماذا تبقى هذه الرابطة مستخفية عنا ؟ لكونها شيئا الاهيا لا يوجد مثله فى المخلوقات)

وقد كنت قلت وانا فى المنفى فى قصيدة ما يتفق مع هذا المعنى :

اسير ما بين امواج مسخرة
من الحقائق فى رمز الاحاطات
ارى معارضة فيها ورابطة
لها واجهل اسرار الرباطات

بقي ان نقول : ان المسيحية نفسها لا تعترف بالقوانين الطبيعية ، اي ما يسميه المسيحيون اليوم بطبائع الاشياء ، وقد اصدر الاكليروس سنة 1215 تحريم دراسة ارسطو ، خصوصا تلاخيص ابن سينا ، واصدر سنة 1231 البابا غريغوريوس التاسع تحريما لدراسة فلسفة العرب ، وكان من اهم الاسباب ، ان هذه الفلسفة تجعل للكون نواميس طبيعية ، وحمل القديس طوماس على فلسفة ابن رشد وشنع عليه انكاره المزعوم للعناية الالاهية وتدخلها فى الحوادث . وقد قرر مجمع باريز اللاهوتي سنة 1269 تحريم الاعتقاد بمبادىء كثيرة من عقائد قدماء الفلاسفة ، منها المسائل الثلاث التي كفر المسلمون بها اولئك القدماء :

1) علم الله بالجزئيات
2) انكار حدوث العالم
3) حشر الاجساد بعد الموت .

واضاف اليها المجمع التكفير باعتقاد ان العناية الالاهية لا تؤثر فى افعال الانسان ولا تديرها ، وانكار ان الله لا يقدر ان يجعل الشيء القابل للموت والفناء (اي الانسان وما سواه) خالدا باقيا .

ثم ان نقد المسيحيين لقانون العلة ، لم يكن الا بعد ترجمة كتاب التهافت للغزالي ، واطلاع آباء الكنيسة عليه ، ونفوذ تعاليم الغزالي لما لبرانش الذي درس اللاهوت دراسة متينة ، ورسم كاهنا ، واخذ يعالج المسالة علاجا ميتا فيزيقيا يشبه علاج الغزالي لها ، وهكذا نرى ان الغزالي اثر على دكارت فى فلسفة التشكك ، واثر ايضا على احد رجال تلك المدرسة المتازين فى نقده للعلية ، وقد مهد مالبرانش وبركلي الذي ارجع العلية الى العقل ، لهيوم ، الذي قضى على العلية تماما اذ اعتبرها من عمل المخيلة فحسب . (الدكتور النشار ـ مناهج البحث عند مفكري الاسلام ص 128) .

واذن فالاسلام والمسيحية وسائر الديانات متفقة فى ان الكائنات باجمعها مستندة الى الله من غير واسطة ، ومعنى هذا ان نواميس الله فى الكون او القوانين الطبيعية قائمة بجعل الله ، وان المسبب يقع عند السبب بارادة الله لا بالسبب ، وذلك هو الاطراد العادي الذي لا يدخل تغيره او تخلفه فى دائرة الاستحال العقلي بحال .

« البقية فى العدد المقبل »

بين الجمود والجحود

بقلم الاستاذ الكبير
السيد المختار السوسي

5

فى ضيافة سعيد :

وصلت على راس الرابعة الى المكان الموعـود ان نلتقي فيه ، ثم بقيت انتظر حتى مر نصف ساعة ولما يات الرجل ، فنويت ان انتظر اكثر ، لان امثال سعيد ـ وما اكثر امثاله من الاهالي ـ لا يضبطون مواعدهـم ، فالساعة ان زادت او نقصت يسهل امرها عندهم ، وما اقبحها خلة، ولو كان معي حماد لوجد ايضا مثالا جديدا لانحطاط الامة ، ومصبا آخر يصب فيه ما شاء مـن لعناته .

واخيرا عند الخامسة الا الربع ، جاء الرجـل ، وسلم ثم ذهبنا لطيتنا من غير ان يعتذر لتاخره عن الوقت ، كانه ما فعل الا المعتاد المالوف ، وقبل ان نركب سيارة ، جاء شرطي ينظر فى السيارة وفى ركابهـا ، والغالب انه لا يقصد شيئا ، وانما يقتل الوقت ، ولكن صاحبي صارت اساريره ممتقعة ، واطرق براسـه ، كانه مصدوع ، ولم يكد الشرطي ينقلب على عقبيه ، حتى رفع راسه ، واحسست بصرة يخبئها تحـت جبته ، فلم اشك انه (الافيون) ، اشتراه من فاس ، وما كان امتقاع لونه امام الشرطي الا خوف ان يفتش الناس ، فيساق الى السجن بسبب ما فى الصرة .

انطلق لسانه بسرعة بعد ما امن من الشرطي ، كما يحصل من كل من ليس برابط الجاش ، متى زال عنه ما كان يتوجس منه خوفا . فقال :

ـ زرت الآن مولاي ادريس ودفعت فى صندوقه زيارة ليحفظني الله حتى اصل الى داري ، فبدا لي منذ الآن ان الحاجة مقضية .

ولم يخف على ما ينويه ولا ما يرمـي اليـه ، فتغافلت عنه ، ثم قلت له :

ـ ان مولاي ادريس رضي الله عنه رجل عظيم حقا ، وقد كان يجب لمعتقديه ان يقتدوا به فى تقواه وفى نصرته للدين ، لا ان يتخذوه مفزعا كما يفزعون الى اللـه .

فلم يكد سعيد يسمع كلامي ، حتى ادرك ما ارمي اليه ، فقال :

ـ انني ما فزعت اليه بل فزعت الى ربه الذي خلقني وخلقه ، بعد ما ترحمت عليه وجعلت ما وضعته فى صندوقه صدقة يصله اجرها ، وهذه نيتي ، وانـا والحمد لله من اهل السنة الذين يحبون الصالحيـن ويترحمون عليهم ويودونهم للتقوى التي كانوا عليها فى حياتهم ، وانما طلبت الله هناك لتقضي حاجتي ، لمـا يذكر من ان ملكا يقف عند قبور الصالحين يقضي حوائج الناس باذن الله ، او ليس هذا الاعتقاد الذي سمعته مني هو اعتقاد العلماء المحدثين ؟

فلم ازد على ان تبسمت له ، علما مني بان الرجل لا مبدأ له يتقلب مع هواه فى كل حين ، فانه لو لاقـى غيري لثبت على ما قاله اولا ، ولما احتاج الى التاويل ، وربما زاد على ذلك ما عند الجمهور الذين يقفون على راس مولاي ادريس فيتوجهون اليه بالله ان يقضـي حاجتهم بجعل يقدمونه اليه او يعدونه به ، وكل من كان فى مثل مسلاخ سعيد قلما يجدي فيه وعظ ، الا بهداية من الله ، ولذلك اردت ان اترك المجمجة بيني وبينه ، فصارحته بانه بلغني كل ما يتعاطاه من المخـدرات والمعجونات ، فاطرق مستحييا ، فقلت له :

ـ اتهدم صحتك هكذا ، وتقضي على حياتـك بهذه الاخلاق التي لا تلائم من كان فى مثل تلك الاسرة ؟ ولم ينشب ان تباكى الي ، وقال :

ـ دلني على ما اصنع لانسى كل هذا . فقلت له:
ـ استعن بالصبر والصلاة وبمعاشرة الصادقين، فقد قال تعالى : (يا ايها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) . فالكون مع الصادقين مما يستقر به

الايمان فى القلوب ؛ واما ما دمت فى تلك المعاشرة السافلة التي تقضي بها لياليك ، فلا تطمع فى الاقلاع عن تلك العادة الخبيثة .

ثم انني كفكفت ما انا فيه ، واندفعت معه فى المحادثة المتبادلة ، فصار يحكي لي عما يزاوله اصحابه خفية ، مما يعرق له الجبين، ويتصبب السامع به عرقا، فقلت فى نفسي وانا اسمع ذلك منه :

— من هنا كان امثال حماد اقرب الى الخير فى نظري من امثال هؤلاء ، فان ظواهرهم عامرة وبواطنهم خراب ، وقد مرنوا على خشية الناس وعلى الجراة على الله مرانة تامة ، ولا اصعب من ازالتها من جبلاتهم ، بخلاف امثال حماد ، فانهم وان كانوا يجاهرون — وكل الناس معاف الا المجاهرين — يرجى منهم ان وجدوا ناصحا لبقا ان يرجعوا ، وقد تربوا بالتربية الاروبية على الصراحة التامة ، فلا يعرفون مجمجة ولا مراوغة ، فما اعتقدوه صرحوا به علانية ؛ ومتى اعتقدوا غدا ضد ما اعتقدوا اليوم عادوا وصرحوا به ايضا .

بت عند سعيد ، لا انكر من امره شيئا ، فانه تمشى على النمط الذي يعرف انه يوافق ذوقي ، وقد صار يعلن فى كل فرصة ابتهاجه بتوبته على يدي، فاقول فى نفسي اللهم اجعلها توبة نصوحا .

* * *

فى ضيافة ابراهيم :

قابلني امام داره ذلك الصفي القليل النظير بين شباننا المثقف العامل فبعد التحية دخل بي الى موضوع التحدث حول اخيه حماد ، فنفضت اليه كل ما كان بيننا من حين لاقيته الى ان ودعني . فابتهج ابتهاجا القى على محياه نورا لماعا من البشاشة والنضارة .

وفى عشية اليوم تناولت رسالة من البريد فاذا بها من حماد ، يقول فيها :

الاخ المؤثر المكهرب بقوة حجته (فلان) تركتني على احر من جمر ، فقد اثرت مني ما لم يثره قط من اعماق فؤادي مثير ، حتى انني بياض امس ، اعتزلت فى غرفتي لدراسة ذلك الموضوع الجلل ، ولم اكد افتتح التامل فيه من كتاب « فلسفة الاديان »للعالم اجوست سباتييه ، حتى فجاتني موجة من التفكير غمرتني ، فظلت اسبح على اجنحة التاملات سبح الذرة فى اجواز الفضاء ، فنسيت نفسي والكتاب الذي بين يدي ، فوجدت لتاملاتي من اللذة العجيبة ما لم اجده فى تاملات صاحب الكتاب ، فظللت على ذلك من الزوال حتى العشي وقد حاول بعض المعاشرين ان يخرج بي فى الاصيل ، فاعتذرت اليه ، وبقيت كذلك حتى مضى جل الليل ، لئلا تنقطع عني لذة ما انا فيه من امعان التامل ، واكتب اليك والى اخي ابراهيم اعرض عليكما — ان وافقتما — تاخير ذلك المجمع الى ما بعد ايام ، ريثما استقر وراء تاملاتي على قرار . والى اللقاء القريب .

حماد

* * *

وافقناه على ما اقترح ، وابرقنا لاخويه باننا اخرنا المجمع الى آخر الشهر الآتي ، فبدا لي ولابراهيم تحرير رسالة نشق بها الطريق امام تاملات حماد ، متكلين على الله فى نفعها ، وقد تراءى لنا من رسالته ، ان الذي اطلق عليه التامل انما هو حيرة ، ونحن نعلم من علم النفسيات ، ان الذي لم يكن من عادته قط امعان الفكر فى شيء يستعظمه تغلب عليه الحيرة ؛ ويحتاج الى من يوجه فكره الى الناحية المخصوصة ، ويستجمع قوته اليها، وقد كنت اريت حمادا كيف يفكر فى الموضوع وكيف يدرسه ،ويبداه على اساس ما يعلمه مما وصلت اليه العلوم الكونية اليوم من السعة والتدقيق فى النبات والحيوان واجواز السماوات ، ولكنه مغلوب كما يظهر بامواج الحيرة ، فاشفقنا عليه ان يسبح كثيرا الى غير الوجهة المقصودة ، فكتبت اليه الآن هذه الرسالة على نهج ما تقدم مني اليه :

* * *

الدكتور العزيز الفاضل حماد

قبلنا اقتراحك ، واجلنا انعقاد المجمع الى آخر الشهر المقبل بحول الله .

ان الانسان غير الحيوان الاعجم ، وليس التفاوت بينهما بالكلام البين المتزن النبرات المعلن ما فى خوالج الضمائر فقط ، بل كان التفاوت الاعظم مرتكزا على ان الانسان يشعر دائما ، او فى فينة بعد فينة على الاقل ، بانه لا يكفيه لسعادته المطعم والمشرب والماوى ، بل تتوقف غاية التوقف على ما وراء الماديات، فتتطلب احساساته مطالب معنوية، تريد ان تستمدها من غير الماديات، فيطلبها بعضهم فى مغازلات الهوى العذري ان كان حبه عذريا لا غرض له فى الاستمتاع بالشهوة البهيمية ، ويفتش عنها آخرون بين اصداء الشهوة الطنانة ، فتراهم ينفقون كل ما فى ايديهم من المادة لتذوق لذتها المعنوية ، او تراهم يتعرضون بين القنابر للفتك الذريع، تلذذا بطنين ما يستمتعون به من سمعة الشجاعة والاقدام ، فيجودون فى ذلك بجميع ما بين ايديهم من اولاد واموال ، بل بمهج الارواح — والجود بالنفس اقصى غاية الجود — او تجد آخرين يستميتون وراء معتقدات تاثروا بارواحها غاية التاثر ، فلا يبالون بالماديات ولا بكل ما اليها ، بل يبذلون هذه الحياة وكل مباهجها ومتعها عن طيب نفس ، ووجوههم متهللة منتظرين لحياة اسمى واعلى .

فما هذا الشعور الذي يسود على الانسان ولا يسود على غيره من الحيوانات ؟ وما هذا الاحساس الذي تغمره امواجه موجة وراء موجة ، حتى لا يكتفي بمتع المادة فقط ؟ .

فاما هؤلاء الذين يسبحون في الهوى العذري ، او كانوا مجتونين بالشهرة او طيب الذكر ، فان متعهم كلها وان كانت معنوية ، مقصورة على هذه الحياة ، ولكن الذي يستلفت انظار المتاملين ، وافكار الباحثين ، هم هؤلاء الذين يسقيهم دين من الاديان كاسا دهاقا ، ويبعث منهم عاطفة متاججة ، فتجدهم لا يبالون بما يبالي به اصحاب الهوى العذري ، ولا عشاق الشهرة الطنانة ، من متع هذه الحياة فلا يجعلونها المثل العليا .

ما هو الدين ؟ ما هو الاله الذي على اعتقاد وجوده يدور محور كل دين ؟ احقيقي ان هذا الاله هو الذي خلق هذا الوجود على هذا النظام العجيب الذي نراه ؟ اصحيح ان القوة التي اوجدت هذا العالم هي التي تتولاه دائما في اطوار تغيرات كل ما فيه من غروب شمس وطلوعها ، ونبات الاشجار ونضارتها ثم ذبولها ، وتكون الحيوانات من بين احشاء الامهات بكبرها فكهولتها فشيخوختها فموتها ؟ اصحيح ان الانسان العاقل العالم المدجج باسلحة المعارف وبالتجاريب لا يزال ككل ما سواه من الحيوانات العجماء تحت يد تلك القوة ، فهي التي تسيره كيف تشاء ، وتميل به حيث تريد ، وان ارادته انما هي قبس من ارادتها ؟ وهل حقا هذه القوة موجودة ، ام انما كل ما تقوله الاديان ويتبادر الى الاحساسات اوهام ؟ اوهام تلقنها الصغير من الكبير ، وتلقاها المتاخر عن المتقدم ؟ .

يجب على طالب الحقيقة ممن يجلس الى مشاعره والى احساساته ان ينتحي في حين من الاحيان الى منعزل ، فيجرد نفسه من كل ما كان يعمله في هذا الموضوع قبل ، او طالعه او سمعه سواء من جهة اصحاب الاديان ام من جهة الملحدين الكافرين بالاديان ، ويتمشى على طريقة ديكارت في نبذ كل ما اثرته فيه الوراثات والبيئات ، فيحسب نفسه كانه لا علم له بالموضوع ، ولا له فيه تفكير قط ، الا الساعة ، ثم يطلق احساساته ومشاعره في اجواز التامل ، مستضيئا بعقله الذي هو نبراس الانسان المختص به من بين ما حواليه من المخلوقات ، ثم يجول جولة بين السماء والارض ، يبداها من نفسه . فيقول :

— ها انذا موجود بلا ريب ، وهل يمكن ان يكون موجود بلا موجد ؟ او لابد لكل محدث من محدث ، كما قال غارفيلد : **(لا تحدث الاشياء في هذه الدنيا ما لم يحدثها احد)** وليتامل بعقله ، لو كان يمشي في فلاة خالية فوجد فيها ءالة من ءالات المذياع او الحاكي ملقاة ولم يكن له بها علم قط ، ثم اهتدى الى اطلاق الاصوات الرنانة من الآلة : اكان عقله يعتقد ان تلك الآلة وجدت هناك بغير موجد ؟ ثم ان امعن النظر في داخلها وراى كل ما تحتوي عليه ، اكان يحسب موجدها عالما عاملا بحكمة ، ام ان وجود كل اجزاء الآلة انما كان مصادفة ؟ فلا ريب انه يخرج من هذا التامل بان للآلة موجدا وان ذلك الموجد عالم عامل بحكمة ، فان خرج بهذه النتيجة من تامله في تلك الآلة ، فان النتيجة التي يخرج بها في تامل اجزاء جسمه ، خصوصا ان نظر اليه بوساطة علم التشريح ، اعظم من النتيجة التي رجع بها من تامل الآلة ، لان تركب الجسم بكل ما يحتوي عليه ، وكل جزء يودي وظيفته من غير ارادة خاصة من الانسان صاحب الجسم ، واما ان اضاف الى اجزاء الجسم الروح التي تدبر الجسم تدبيرا لا يزال مستعصيا عن مدارك العقول كما استعصى عليها ادراك كنه الروح ، فان النتيجة اعظم واعظم ، ثم اذا تجاوز المتامل في جولته هذه جسمه الى عالم الحيوانات المختلفة المدارك ، العاملة عملا واحدا بتمييز متحد ، اغرب واعجب ، فان شعوره بصحة النتيجة المتقدمة ، يزداد ازديادا عظيما ، خصوصا ان نظر ينظر ما ادركه العلم في دراسة عالم الحيوان ، فاعتبر تاثير الحرارة على خلايا الحيوانات من حيث التحلل ، والتركب ، والتبخر ، والامتصاص ، والافراز ، ويزداد عبرة باجالة نظرة حول غرائز امثال النحل والنمل ، ثم اذا وصل عالم النباتات فتامل تاثير اشعة الشمس على المادة الخضراء في اوراق الشجر ، وضرورة تلك المادة في النمو والازدهار ، وكيف تتنفس خلايا اوراق الاشجار ؟ وكيف تتسرب ذرات الاوكسيجين وجزئيات حمض الكربونيك منها الى الاجزاء ، فتتكون السوق والاغصان والازهار والاثمار ؟ وكيف تختلف الاثمار من انواع الاشجار في الالوان واللذات والاشكال والحجوم ، وكيف تتلون الازهار بالوان عجيبة تبهر الابصار ؟ وكيف تؤتي كل هذه النباتات اكلها او ازهارها او حبوبها في مشارق الارض ومغاربها على كيفية منظمة؟ اذن يدرك ان القوة التي تتولى تسيير كل ذلك ليست الا قوة عاملة بحكمة تفوق حكمة الانسان .

واما اذا اجال المتامل عينيه في السماء ، فراى ءاية النهار ، وادرك ان منها مستمد القوة التي يعيش بها حيوان الارض ونباتاته ، فانه يدرك ان موجد الارض هو هو بعينه الموجد للسماء بدليل توقف ما في الارض على ما في السماء ، كما نرى من احتياج كل ما في الارض الى حرارة الشمس .

ومتى سبح بعقله مع سابحات الليل وراى القبة الخضراء المرصعة بنجوم بيضاء ، وراى كيف تتحرك تلك المجموعة الشمسية العجيبة بكيفية مدققة الحساب ، وان عددها يصل فيما يدركه علم الانسان الى ملايين ، ثم لم تكن تلك المجموعة الشمسية الا مجموعة صغيرة من المجموعات التي ادرك الانسان بعلمه وعقله وجودها ، ثم عجز عما وراءها كما لا يزال عاجزا حتى في ادراك حقائق عظيمة في جسمه ، فانه يرجع وهو يسلم يقينا قدرة تلك القوة ، وعلمها الواسع سعة يعجز العقل عن ادراكها .

لا ريب ان العالم ، كحضرتك ايها الدكتور، ان جال مثل هذه الجولة ، مستعينا اولا بعقله وبشعوره وباحساسه ، وثانيا بما علمه مما وصل اليه علم هذا العصر في دراسة الكون والنبات والحيوان وغيرها ، جدير بان يستنتج نتيجة عظمى في هذه الجولة ، تسود سماسرة الالحاد ، واسرى المادة ، ولا سيما ان درس مع ذلك علم الارواح ، فانه يدرك ان للعالم موجداً بلا ريب ولا شك ، وانه كما اوجد المحسوسات اوجد ايضا عوالم لا نحس بها بديهة ، ولكنها موجودة يقينا ، وهذا الموجد هو الله الذي لا اله الا هو عند اصحاب الاديان، وهو الذي يعنيه غيرهم بالقوة الخفية العاملة بحكمة .

وارجو ان تهتدي اولا من دراسة نفسك فتفكر كيف خلقت من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم صرت جنينا ، ثم طفلا ، ثم شابا ، ثم كهلا كما كنت اليوم وانت ابن 45 سنة ، فلا ريب انه ليس لوالديك في نشاتك الاولى يد ، ولا لهما ايضا يد في تنمية اجزاء جسمك ، ففكر في هذا كثيرا ، فانه مفتاح تلك الجولة ، وهو نهايتها .

واما كتاب **(اوجست سباتييه)** وكثير من امثاله كتاب **(تاريخ الاديان) لرينان** ، فانها لا تخرجك عن التقليد . فهذا كتاب الكون مفتوح امامك ، فاقرا سطوره الواضحة البينة ترشد ، فان ذلك اقرب لما تريد ، والا فكيف تقنع ان لم تدرس لنفسك . بقولة او نسب رينان في كتابه المذكور :

(من الممكن ان يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه من ملاذ الحياة ، ومن الممكن ان تبطل حرية القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل ان ينمحي التدين ابدا ، وسيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي ، الذي يريد ان يحصر فكر الانسان في المضائق الدنيئة الحياة الطينية) وبقولة اجوست سباتييه في كتابه المذكور :

(لماذا انا متدين ؟ انا متدين لانني لم استطع خلاف ذلك ، لان التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي ، يقولون لي : ان ذلك اثر من آثار الوراثة ، او التربية او المزاج ، فاقول لهم : قد اعترضت على نفسي كثيرا بهذا الاعتراض ، ولكني وجدتها تقهقر المسالة ولا تحلها ، وان ضرورة التدين التي اشاهدها في حياتي الشخصية اشاهدها باكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية ، فهي ليست اقل تشبثا مني باهداب الدين ، فالدين باق وغير قابل للزوال ، لا ينضب ينبوعه بل نراه يتزايد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة) .

ان امثال هذه الاقوال لا ينجع دواؤها فيمن ارتطم في ادران الشبه ، وكان قلبه في غلاف من الشكوك، فما حك جلدك مثل ظفرك ، فتول انت بنفسك الدراسة لنفسك ، فان التقليد لا يحبه عاقل ، ولا يقول به عالم، ولا يجدي نفعا في اي دين .

ان اسباب البحث لا يعدمها الانسان ، فان في طواياه شعورا خفيا لا يزال يدعوه الى التامل في انه ضعيف ، وان ضعفه حقيقة لا ريب فيها ، وكثيرا ما يدعو شعور من لا يقول بالله صاحبه الى مراجعة الحق حين تصدمه احدى الحوادث التي لا تنقطع عن الانسان في كل حياته ، فمن اصيب بمصيبة من هؤلاء يحس من ضميره منبها الى الرجوع الى الاقرار بالضعف ، والى اسناد القوة لمن اوجده من العدم ، ولكن كثيرا ما يمر هذا الشعور بالماديين الملاحدة ، كوميض البرق ، حين لا يجد منهم اصاخة ولا من ارادتهم التفاتة ، ولا من عقولهم اية انتباهة لذلك ، قال بعض الفلاسفة في الموضوع :

(اذا اصيب الانسان بمصيبة تلظى فؤاده نارا ، وكادت نفسه تطير شعاعا، وشعر بحقيقة ضعفه ووهنه واحس بضئولة قوته وحوله ، وادرك كنه مركزه في هذا الوجود الهائل ، وعرف انه فيه غريب وحيد ، بل طريد شريد ، اينما يوجه وجهه لا يجد معينا له على بلائه ، ولا مقيلا له من تعثره في ذيول لاوائه ، يرفع راسه الى السماء فلا يرى الا الكواكب الزهر تسبح في الفضاء ، والصمت شعارها ، والسكوت ديدنها ويرمي بعينيه الى الارض فلا يرى الا غيرانا وجبالا وهضابا وتلالا ، ان ناجاها ارتد عليه صوته او ذهب ادراج الرياح ، ثم يرجع الى نفسه فيرى حوله قومه وبني ابيه ، وليس فيهم احد منزه عن مثل ما الم به — وهبه مليكا متوجا، او عالما عبقريا ، او غنيا بالقاب المليونير مكللا — فليسوا باقل احتياجا لتلمس المخلص من مهددات الوجود ومبيدات الحياة ، اذن ماذا يعمل هذا الانسان وهو في تلك الحالة الحرجة والموقف الصعب ؟ باي ركن يعتصم والى اي ملاذ يلوذ ؟ على اي سند يعتمد وفي اي مساعد يؤمل النجاة ؟ » .

ليس امامه الا الترامي بين يدي تلك القوة الازلية التي اخرجته من العدم ، وقضت عليه بما هو فيه من ذلك الحال، تلك القوة التي اقامت هذا الوجود على دعائم الحكمة غير المتناهية ، تلك القوة التي لم تضع شيئا في غير محله ، ولم تهب شيئا بدون فائدة ، تلك القوة التي وهبت الانسان هذا الفكر الطموح ، والعقل الجموح ، والاحساسات المتعاكسة ، والميول المتضاربة ، لحكمة بالغة ومقصد عظيم .

اذا ألقى الانسان بنفسه بين هذه القوة ، ثلج صدره ، واطمان على نفسه ، لتحققه ان هنالك قوة معتنية به ومهيمنة عليه ، ولو فقد الانسان الثقة بهذه القوة فكيف تدخل نفسه طمانينة ، ام يتذوق لذة الراحة والسكينة .)

ما اكثر غرور الانسان ، وما اجهله بانسانيته وبما يراد منها ، فقد يحكم على نفسه بانه والجمادات سواء ، او ليس الجاهل المغرور يقول : ان هو الا وجود قصير لا فائدة وراءه ، ثم فناء لا حياة بعده ، فلو ان انسانا راى آخر عمد الى فلاة بلقع خالية ، فبنى فيها قصرا عظيما فيه كل ما انتهى اليه فن المعمار من الهندسة التي تبهر العيون ، وتستنفد العجب ، ومن زخرفة خلابة النميقات ، غريبة التنسيقات ، بالوان باهرة ، وتذهيبات متلالئة ، وترخيم مجزع ، وتزليج مرصع ، ثم نسق حدائق حوالي القصر ، ترف بانواع الازهار صنوان وغير صنوان ، تتخللها جداول متدفقة بالنمير الزلال ، وهي تتلوى بين حياض الازهار المنظمة وتحت ظلال الاشجار المخضرة ، ثم لم يعد الباني هذا القصر العجيب الا ليمكث فيه ثانية فقط ، ثم يدعه للخراب ينعق فيه البوم ، وتتخذه الغربان معششا ، لعد منه ذلك حمقا اي حمق ، وبلها يستحق به ان يودع في مستشفى المجانين .

افليس كذلك من يرى كيف خلق الانسان هذه **الخلقة العجيبة بروح لا تقنع احساساتها بالمادة ، وبعقل** طموح يتسع محيطه لكل هذه الكائنات على رحبها ، ثم يزعم ان الحكمة التي نسقت الانسان احسن تنسيق، لم ترد به الا هذه الحياة وحدها ، وهي كلا شيء بين تطاول الازمنة الماضية والحاضرة ، زيادة على انها حياة **قصيرة مفعمة بالارزاء، وبمعارك ممضة فيما وراء القوت،** تتكسر فيها النصال على النصال .

الا فليعتبر في ذلك المعتبرون الذين يقولون : ان هي الا ارحام تدفع وقبور تبلع ، فاي فرق حينئذ بين الانسان والبهائم التي يسخرها الانسان ؟

ايها الدكتور الجليل ، هاك بعض افكار حضرت ، لعلها تساندك في دراستك حول القوة الموجدة للعالم ، اهي عاملة بحكمة ام لا ؟ والى اللقاء .

« يتبع »



((تاليف)) للفنانة المغربية مريم مزيان .

معرض الفنانين المغاربة



نرى في المدن الكبيرة مآت من المعامل تجري بقوة الكهرباء ، وتجري على شوارعها الحافلات الكهربائية ــ الترامات ــ وتضيء شموس الكهرباء بالليل ، وتدور المراوح الكهربائية في البيوت ايام الصيف .

ولكن هيهات ان يسبب كل هذا شيئا من الحيرة والاستعجاب في اذهاننا ، او نختلف عليه حول علة ضوء هذه الاشياء وحركتها .

لـــماذا ... ؟ .

لان الاسلاك التي تتصل بها هذه الشمـــوس ، نشاهدها باعيننا ونعرف دائرة الكهرباء التي منها تبدا هذه الاسلاك ، ونعرف من يعمل فيها من العمــال ، ونعرف المهندس الذي يشرف عليهم فيها ، ونعرف ان هذا المهندس له خبرة بعملية توليد الكهرباء بتحريك ما عنده من الآلات الكبيرة الكثيرة .

نشاهد آثارالكهرباء ومظاهرها ولا ينشا الاختلاف في آرائنا حول علتها ، وانما السبب في ذلك ان سلسلة هذه المظاهر والآثار داخلة تحت حسنا ومشاهدتنا .

وافرض ان لو كان الامر ان تضيء هذه الشموس وتجري هذه المعامل والحافلات كما هي تضيء او تجري الآن ، ولكن بدون ان نشاهد الاسلاك التي بها تصــل اليها الكهرباء من دائرتها ونعرف هذه الدائرة ومن يعمل فيها من العمال ونعرف المهندس الذي يشرف عليهم ويولد الكهرباء بعلمه وخبرته وقدرته . لو كان الامر كذلك ، فهل كنا يا ترى على مثل الطمانينة والدعة التي نحن عليها الآن ، ولا اختلفنا في علة هذه المظاهر ؟ .

الجواب : كـــلا ! .

لانه من الطبيعي اذا كانت اسباب الآثار خافيــة وعلل المظاهر غير معلومة ان ينشا القلق والاضطراب في القلوب مع الحيرة والاستعجاب ، وتنصرف الاذهان الى محاولة الكشف عن هذا السر المختوم وتختلف فيــه الآراء وتتضارب الظنون .

ولنتقدم في الكلام قليلا على هذا المفروض ، ونقل انه واقع في حقيقة الامر: تضيء الشموس وتدور المراوح وتجري المعامل والحافلات وما بيد الناس من وسيلـــة يطلعون بها على القوة التي تعمل في هذه الشمـــوس والمراوح والمعامل والحافلات ، ولا يعرفون المكان الذي تبدا منه فهم حيرى لا يكادون يقضون العجب برؤية هذه الآثار ويقدح كل منهم بزند عقله ليبحث عن اسبابها فمنهم من يقول : ان هذه الاشياء انما تضيء او تتحرك بنفسها ، وما في خارج وجودها شيء يعطيها الضوء او الحركة ، ومنهم من يقول :

ان المواد التي منها تركبت هذه الاشياء هي التي انشا فيها امتزاجها كيفية الضوء والحركة ومنهم مــن يقول :

ان وراء عالم المادة ، الذي نعيش فيه ، آلهة يسير بعضهم الحافلات ، ويضيء بعضهم الشموس ، ويدور بعضهم المراوح ، ويجري بعضهم المعامل .

ومع هؤلاء وهؤلاء رجال قد اعياهم البحــث وايئسهم النظر في امر هذه الآثار الظاهرة ، فيقولون في عجز . ان لا قبل لعقلنا الضعيف بادراك سر هذا الطلسم وما مبلغ علمنا الا على قدر مشاهدتنا وحسنا ، فكل ما لا ياتي تحت مشاهدتنا وحسنا لا نكذبه ولا نصدقه.

يتشاجر هؤلاء جميعا ويحتدم بينهم النزاع، ولكن بدون أن تكون عند احد منهم وسيلة للعلم تؤيد رايه وتفند راي غيره ، الا الظن والمجازفة في القول والرجم بالغيب .

فبينما هم كذلك ، يطلع عليهم رجل ويقول : عندي وسيلة للعلم ليست عند احد منكم ، وبها اعلم ان هذه الشموس والمراوح والمعامل مرتبطة بعدد مــن الاسلاك غير الآتية تحت الرؤية او الحس ، وان هذه الاسلاك تجري فيها من معمل كبير ، قوة هي التي تظهر لكم بمظهر الضوء والحركة ، وان هذا العمل فيه آلات

ضخمة كثيرة يسيرها عدد كبير من العمال ، وان هؤلاء العمال يشرف عليهم مهندس كبير ، وان هذا المهندس هو الذي قد اوجد هذا النظام بعلمه وقدرته ، فلا تجري فيه الاعمال الا تحت اشرافه وحسب مشيئته .

يقول لهم هذا بكل ثقة وجزم ، ولكنهم يكذبونه ويفندون دعواه، ويشتمونه ، ويرمونه بالجنون واختلال العقل ، ويؤذونه ، ويخرجونه من وطنه ، فيعاني منهم كل هذه الشدائد والآلام في جسده وروحه ، ولكن يبقى ثابتا على دعواه ولا يغيرها او يحرفها او يخففها خشية لاذاهم او رجاء في عطفهم ، ويظهر صادقا كل الصدق في كل قول من اقواله وعمل من اعماله .

ثم ياتي رجل آخر ويقول للناس ما قد قال لهم الاول ولا يدعي الا دعواه . ثم ياتي الثالث فالرابع والخامس ولا يقول احد منهم الا ما قد قال سابقوه . ثم ياتي الآتون متتابعين حتى يربو عددهم على الآلاف وهم يقولون الا قولا واحدا لا خلاف فيه البتة على اختلاف ازمانهم وتباعد اماكنهم . يقولون جميعا ان عندنا وسيلة للعلم ليست عند غيرنا ، فيرمون بالجنون ويناصبون العداء والاذى ويكرهون بكل وسيلة على ان يقلعوا عن دعواهم ، ولكنهم يبقون ثابتين عليها، ولا تستطيع قوة من قوى العالم ان تزلزل اقدامهم او تزيلهم عن مكانهم . ومزيتهم — على هذه الاستقامة والعزيمة — ان ليس احد منهم كاذبا ولا خائنا ولا فاجرا ولا ظالما ولا آكلا للحرام، واخلاقهم زكية وسيرتهم اطهر من السحاب في كبد السماء ، ولا يوجد فيهم أثر للجنون ، بل هم — على العكس من ذلك — يعرضون على الناس تعاليم ، ويضعون قوانين لتهذيب اخلاقهم وتزكية نفوسهم واصلاح شؤونهم الدنيوية ، لا يكاد يدرك كنهها واسرارها فحول علمائهم واعقل عقلائهم على بعد نظرهم وطول تجاربهم الا بشق الانفس ، فضلا عن ان ياتوا بتعاليم وقوانين مثلها .

ففي جانب هؤلاء المكذبون المختلفون في آرائهم ، وفي الجانب الآخر هؤلاء المدعون المتفقون في دعواهم . وها هي ذي قضيتهم ترفع الى محكمة العقل السليم :

من واجب العقل — باعتباره قاضيا في هذه القضية — ان يكون على معرفة تامة من موقفه وموقف كل من الخصمين ، ثم يوازن بينهما ويصدر حكمه في امرهما بكل عدل وانصاف .

فموقف القاضي ان ليس عنده من وسيلة لمعرفة واقع الامر ، ولا عنده من علم بالحقيقة ، وانما امامه بيانات الخصمين ودلائلهما واحوالهما الذاتية ، ومع ذلك هو ينظر الى الآثار والقرائن الظاهرة ، فلا يستطيع ان يصدر حكمه في من يغلب ان يكون على الحق منهما الا معتمدا على هذه الامور لا غير على انه لا يستطيع مع ذلك ان يحكم باكثر من كون احد الخصمين على الحق في غالب الامر . لان المواد والوقائع التي تحتويها ورقة الدعوى ، صعب عليه على اساسها ، ان يحكم بما هو واقع الامر بالقطعية . فله ان يرجح راي احد الخصمين على راي الآخر ، ولكن ليس له البتة ، ان يكذب احدهما ويصدق الآخر باليقين القطعي .

اما موقف المكذبين ، فهو :

1 — ان نظرياتهم مختلفة متضاربة في تحديد الحقيقة ، ولا يتفقون في نكتة من نكاتها ، حتى طالما قد وجد الاختلاف في افراد طائفة منهم بعينها .

2 — وانهم ليعترفون بانفسهم بان ليست عندهم وسيلة للعلم ليست عند غيرهم ، ولا تدعي طائفة منهم باكثر من انها ارجح من غيرها في قياسها ، كانهم جميعا يعترفون بكون اقيستهم اقيسة ولا اكثر .

3 — وان اعتقادهم بمختلف اقيستهم دون الايمان واليقين والوثوق غير المتزلزل ، وكثيرا ما توجد فيهم الامثلة على تغييرهم آراءهم ونظرياتهم ، وطالما شوهد الواحد منهم قد يدعو الى نظرية بكل حماسة الى الامس، فاذا به اليوم يرفض هذه النظرية ، ويقول بنظرية غيرها ويدعو اليها ، كان نظرياتهم عرضة للتبدل والتغير مع رقي الاعمار والعقول والعلوم والتجارب .

4 — وانه لا دليل عندهم لتكذيب المدعين سوى انهم ما جاؤوا بثبوت قطعي لصدقهم ، وانهم ما اروهم الاسلاك الخافية التي يقولون انها هي التي تتصل بها الشموس والمراوح ، ولا اثبتوا لهم وجود الكهرباء بالتجربة والمشاهدة ، ولا ذهبوا بهم الى دائرة الكهرباء ، ولا اروهم ما فيها من الآلات، ولاجمعوهم بمن يعمل فيها من العمال، ولا بالمهندس الذي يشرف عليهم ، فيقولون: ما لنا اذن ان نصدق هؤلاء المدعين في دعواهم ؟ .

واما المدعون ، فموقفهم :

1 — انهم جميعا متفقون على قولهم وعلى كل نكتة من نكات دعواهم .

2 — وان دعواهم التي يتفقون عليها جميعا ، هي ان عندهم وسيلة للعلم ليست عند غيرهم من الناس .

3 — وانه لم يقل احد منهم : اني ابين لكم ما ابين بناء على ظني او رجما بالغيب ، بل قد قال جميعهم : ان بيننا وبين المهندس روابط خاصة ، وان عماله ياتون الينا ، وانه قد اسرى بنا الى معمله ، فلا نقول شيئا الا على اليقين والبصيرة والعلم لا على الظن والمجازفة .

4 ــ وانه لا يوجد مثال واحد على ان احدا منهم غير ولو قيد شعر فى بيانه ، فليس هناك الا شيء واحد هو الذي يقوله ويدعو اليه كل واحد منهم ، منذ بداية دعواه الى آخر نفس فى حياته .

5 ــ وان سيرتهم واخلاقهم فى منتهى الطهارة والزكاء . ولا يشوبها ادنى شائبة من الكذب والخديعة والغش والباطل . ولا ثمة ما يبيح ان يرموا بالتآمر على الكذب فى هذه القضية خاصة ، مع كونهم صادقين امناء فى سائر شؤون الحياة وقضاياها .

6 ــ وانه ليس هناك من شيء يدل على كونهم يقصدون بدعواهم منفعة شخصية ؛ بل من الثابت فى امرهم على العكس من ذلك ، ان اكثرهم لاجل هذه الدعوى قد تحملوا مصائب شديدة ، وآلاما تقشعر من سماعها الجلود ، فقد اوذوا وضربوا والقوا فى غياهب السجون واخرجوا من ديارهم حتى لقد نشر بعضهم شقين .

ولم يتح الا لعدد معدود منهم ان يعيشوا عيشة الرغد والرفاه . فمن المستحيل قطعا ان يرموا بالعمل لاغراضهم الذاتية، بل الذي يدل عليه ثباتهم على دعواهم فى مثل هذه الاحوال ، ومع هذه الالام والشدائد ، انهم على يقين تام من صدقهم ؛ حيث لم يقلع احد منهم عن دعواه خوفا على نفسه .

7 ــ وانه لا ثبوت البتة لكونهم مصابين بالجنون او الاختلال فى عقولهم، بل انهم معروفون بسلامة العقل، وتوقد الذهن ، ونفاذ البصيرة ، وحصافة الراي فى كل شان من شؤون الحياة ، حتى لقد اعترف لهم بذلك اعداؤهم ومخاصموهم انفسهم . فكيف يصح اذن ان يكونوا قد اصيبوا بالجنون فى هذه القضية خاصة ؟ وفى اية قضية ؟ . . .

فى قضية لا يحيون الا بها ولا يموتون الا عليها . . .

قضية قد عرضوا انفسهم من اجلها لعداوة الدنيا كلها وظلوا يحاربونها عليها الى سنوات متتابعة . . . .

قضية هي اصل الاصول لكل ما لهم من التعاليم السامية التي يعترف بمعقوليتها كثير من المكذبين انفسهم .

8 ــ وانهم ما قالوا للناس اصلا : اننا قادرون على ان نجمعكم بالمهندس او نريكم معمله الخافي او نثبت لكم دعوانا بالتجربة والمشاهدة ؛ بل هم انفسهم يعبرون عن كل ذلك بكلمة « الغيب » ويقولون للناس : آمنوا بما نخبركم به معتمدين علينا .

وها هي ذي محكمة العقل تصدر حكمها بعد الاستماع الى بيانات الخصمين والنظر فى موقفهما :

تقول : ان كلا الخصمين قد شاهد المظاهر والآثار، وحاول الكشف عن اسبابها وعللها الباطنة، وقدم ماله فى بابها من النظريات والافكار .

ففي بادىء النظر لا فرق البتة بين كل هذه النظريات والافكار باعتبار :

اولا ــ ان ليست فى احداها الاستحالة العقلية ، اى لا يجوز ان يقال عن اية نظرية منها ــ بموجب القوانين العقلية ــ انها مستحيلة الصحة .

ثانيا ــ انه لا يمكن ان تثبت صحة احداها بالتجربة او المشاهدة، فلا تستطيع طائفة من الفريق الاول، ان تثبت نظرياتها ثبوتا علميا يرغم كل انسان على ان يوقن بصحتها ، ولا ذلك مما يستطيعه الفريق الثاني او يدعيه .

ولكننا اذا انعمنا النظر فى القضية بمزيد من البحث والتحقيق ، ظهرت لنا عدة امور يجوز القول على اساسها بأن نظرية الفريق الثاني ارجح النظريات واقربها الى الصحة .

اولا : لانه لم يؤيد نظرية غيرها مثل هذا العدد العظيم من العقلاء طاهري السيرة صادقي القول بمثل هذه القوة والثقة واليقين والايمان وعلى اتفاق كامل بينهم .

ثانيا : لان اتفاقهم جميعا فى مختلف الازمان والاماكن على دعوى ان عندهم وسيلة غير عادية للعلم، وانهم بهذه الوسيلة قد ادركوا الاسباب الباطنة للمظاهر الخارجية ، يميل بنا الى تصديق دعواهم ؛ ولا سيما لانه لا اختلاف البتة فى بياناتهم عن معلوماتهم ، كما انه ليس فى بياناتهم هذه شيء من الاستحالة العقلية، وليس من المستحيل ــ على اساس القوانين العقلية ــ ان توجد فى عدد من الناس قوى غير عادية لا توجد فى غيرهم .

ثالثا : لان الاغلب ــ اذا تاملنا فى المظاهر الخارجية ــ ان تكون نظرية الفريق الثاني هي الصحيحة . وذلك ان ليست الشموس والمراوح والحافلات والمعامل تضيء او تتحرك بنفسها ؛ لانه لو كان الامر كذلك ، لكانت هي نفسها قادرة على الضوء والحركة ؛ مع انه لا يقول بذلك احد . وكذلك لا يمكن ان يكون ضوؤها وحركتها نتيجة لتركيب مادتها الجسدية ؛ لانها عند ما تضيء او تتحرك ، لا يزال تركيب مادتها هو التركيب لاجسادها. وكذلك لا يصح ان تكون هي تابعة للقوى المختلفة المتفرقة لانه عند ما لا يكون الضوء فى الشموس ، تكون المراوح

والحافلات والمعامل ايضا متعطلة موقوفة . فعلى هذا ان كل ما قدم الفريق الاول من النظريات توجيهـــا للمظاهر الخارجية ، بعيد عن العقل والقياس ، واصح شيء في هذا الصدد ان لا يكون هناك الا قوة واحدة تعمل عملها في كل مظهر من هذه المظاهر ، ولا يكون مبدء انطلاقها الا بيد عزيز حكيم ، يصرفها في مختلـــف المظاهر تحت نظام مضبوط مطرد .

اما قول المتذبذبين انه لا قبل لعقلنا الضعيـــف بادراك سر هذا الطلسم وان كل ما لا ياتي تحت حسنا وادراكنا لا نكذبه ولا نصدقه ، فان حاكم العقل لا يبرره ايضا ، لان كون شيء واقع في حقيقة الامر ، لا يستلزم ان يدركه السامعون به ، بل ان الشهادة المتواترة الموثوق بها هي الكافية في الاعتراف بوقوعه .

فعلى سبيل المثال اذا جاءنا فريق من النـــاس وقالوا اننا قد راينا الناس في الغرب يركبون مراكب من الحديد ، ويطيرون في الجو ، او اننا قد سمعنا في لندن غانية تغني وهي في اميركا ، فاننا نكتفي بان ننظر في امرهم هل هم من الكاذبين الهازئين ام من الصادقين الجادين ؟ وهل لهم من غرض ذاتي يرمون اليه ام لا ؟ وهل هم مصابون بشيء من الجنون او الاختــلال في عقولهم ام لا ؟ فاذا تبين لنا وتاكد انهم ليسوا بكاذبين ولا هازئين ، ولا يقصدون وراء روايتهم غرضا ذاتيا ، واذا وجدنا شيئا واحدا بعينه يرويه لنا عدد عظيم من العقلاء الصادقين المخلصين بكل جد وبدون اي اختلاف او تضارب في قولهم ، فاننا لا جرم نسلم به تسليما ، ولو كنا لا ندرك باعيننا وآذاننا طيران المراكب الحديدية في الجو ، او نسمع المغنية تغني على بعد آلاف مـــن الاميال بآذاننا .

* * *

هذا هو حكم العقل في هذه القضية . اما كيفية التصديق واليقين ـ المعبر عنها بالايمان ـ فانها لا تنشأ بهذا الحكم ، بل هي محتاجة الى الوجدان وانشراح الصدر ، والى ان يجد الانسان من داخله صوتا يمحو في ذهنه كل اثر من آثار الارتياب والتذبذب والتكذيب ويقول بدون التباس ولا ابهام : **ان الخراصين علـى الباطل ، والحق ما بينه الصادقون الامناء ، لا علـى قياسهم ولكن على علمهم وبصيرتهم .**



« ثلج » للفنان المغربي ادريس الادريسي ـ الرباط
معرض الفنانين المغاربة

ليل وصباح

للشاعر الاستاذ عبد الكريم بن ثابت

السفارة المغربية - تونس



سهرت وكان شعاع القمر
ينام ويحلم فوق الغصون

وبت اشاهد ظل الشجر
كأني اشاهد بعض الظنون

ونام الانام وحل السهر
لمن أتلفته سبيل الفنون

ومن بات يشكو الاسى والضجر
ومن قاده الحب نحو الفتون

ومن ظل يطلب خير البشر
ومن ألبسوه رداء الجنون

وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف أقضي السنين ؟

فباءت بصمت عميق رهيب
وفاضت دموعي وهل تنفع ؟

تطلعت انظر نور السماء
وسحر النجوم التي تلمع

تسير مدللة في الفضاء
كدل العرائس اذ ترتع

يجود عليها ببعض السناء
مليك وديع الضيا أروع

كريم يفيض بصفو الضياء
وروح الخلود وما تقنع

وصحت اسائل هذا السناء
سلاما وروحا وما يسمع

وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف أقضي السنين ؟

فباءت بصمت عميق رهيب
وفاضت دموعي وهل تنفع

تلفت فارتاع بين الضلوع
فؤادي الحزين بفرط النحيب

ومن حولي القوم ، بعض هجوع ،
وبعض حبيب يناجي الحبيب

وبعض يصلي صلاة الخشوع
الى الله يرجو الثواب المنيب

يظل الى الصبح بين الركوع وبين السجود وما من مجيب
وبعض يكد ليفني الجموع ويحصدهم بالسلاح الغريب

وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف أقضي السنين ؟

فباءت بصمت عميق رهيب وفاضت دموعي وهل تنفع ؟

رجعت لنفسي وقلت لها مثالك يا نفس ما اعظمه
مثال قوى لانس نهى عن الفتك والظلم ما اكرمه !
تقدس عن كل ما يشتهي عليم وما ضل من علمه
تقي الضمير قوي النهى سليم التبصر ما أحكمه !
فخابت ظنوني لما لها مثالي واطفا لي أنجمه

وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف أقضي السنين ؟

فباءت بصمت عميق رهيب وفاضت دموعي وهل تنفع ؟

نجوم وبدر ورقص الشعاع على الماء ينساب بين الهضاب
وخضر المروج وجرد البقاع تبسمن للبدر بين السحاب
وماء الجداول بين الضياع تلالا مثل لجين مذاب
جمال تخاذل عند الصراع جمال سيد لف نحو الخراب
سيفنى ويبقى لدينا التياع وحزن عميق لهذا المصاب

وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف اقضي السنين ؟

فباءت بصمت عميق رهيب وفاضت دموعي وهل تنفع ؟

هنالك شيخ وقور جليل لقد مات ـ رباه ـ موت اللئيم
هنالك طفل وديع جميل يعذب مثل الشقي الاثيم
وحب شريف وقلب يميل الى الخير يشقى بنار الجحيم
وبغض عنيف وروح ذليل وضيع يلاقي حظوظ العظيم
حياة قد امتزجت بالعليل من الحق مثل امتزاج القويم

ونـاديـت يـا نفس هـل تعلمين
لماذا وكيف أقضي السنين ؟

فباءت بصمت عميق رهيب   وفاضت دموعي وهل تنفع ؟

وبات خيالي وراء الوهاد   يطوف ليكشف هذا الوجود
وسر الحياة ومعنى الجماد   ومعنى الفناء وسر الخلود
ودنيا الجنون وكنه الرشاد   وأصل الوفاء ودنيا الجحود
وفي القلب نار وما من رماد   لديها وما أججت بالوقود
وفي الفكر نور ينير السواد   قريبا ولا يتعدى الحدود

ونـاديـت يـا نفس هـل تعلمين
لماذا وكيف أقضي السنين ؟

فباءت بصمت عميق رهيب   وفاضت دموعي وهل تنفع ؟

وبعد زمان أطل الصباح   كطفل على مهده يبسم
كعذراء بين مروج البطاح   تتيه وترقص او تحلم
كثغر الورود كخد الاقاح   على حزن ضاحك ينعم
ونادى المنادي الكفاح الكفاح   وداووا به يأسكم تسلموا
فما من سلام وما من نجاح   بغير الجهاد فلا تسأموا

ونـاديـت يـا نفس هـل تعلمين
لماذا وكيف أقضي السنين ؟

فقالت لاجل الخلود الحبيب   تعيش وتخلق ما ينفع

ينير دياجي هذا الاجل
جهاد وحب وصدق الامل

من تطورات اللغة العربية

للاستاذ محمد بن تاويت
مدير معهد مولاي الحسن للابحاث
بتطوان

اللغة ما هـي الا كائـن حي ، يجري عليـه مـن التطورات ، ما يجري على كل كائن مثله ، ولقد لاحظ الاقدمون ذلك ، وتفرغوا لدراسته ، وراقبوا كل مـا يعرض عليه من عوارض ، في كيانه ، او استعمالاته ، او في دلالاته ، واشهر من اهتم بذلك ابن قتيبة وابن جني ، والراغب الاصفهاني .

وهناك بعض الكلمات في العربية ، لم نر من تنبه لها واشبع فيها القول ، وهي تعد من فقه اللغة ، فمن ذلك كلمة :

أقام بالمكان

فكلمة الاقامة ، كانت في اصلها متعدية ، فأقام الانسان بالمكان ، اي اقام خيمته به ، وهذا ما حصـل بالضبط ، في اللغة التركية ، فالقيام عندهم « طورمق » والاقامة « طورتمق » ، بعلامة التعدية ، مع انه يقصد به المكوث ، كما في العربية ، فما السبب في ذلك ؟

السبب يرجع الى طبيعة الاتراك ، التي تشبـه العرب ، في تنقلهم الدائب ، ورحلاتهم المستمرة ، اولئك على فرس ، وهؤلاء على جمل ، فموطن الاتراك الاصلي ، هو اواسط آسيا ، وبه عرف تركستان ، اي حوز الترك ، ومن المعلوم في الجغرافية ، ان هذه المنطقة ، تسمى منطقة الافراس ، فهي موطن الفرس الاول ، وطبيعتها تلائمه اكثر من غيرها ، وكذلك الجمل ، سفينة الصحراء ، فهو عربي النشاة ، لا ينازعه في ذلك منازع ، وشبـه الجزيرة العربية اوفق به من غيرها ، فكان الفـرس عمدة التركي ، كما كان الجمل عمدة العربي ، ومن كان يملكهما على ذلك الحين ، كان رحالة ، يقطع الفيافـي والقفار ، ويطوي الارض ، ويجوب الاقطار ، هذا مـا سهل على الترك مع العرب ، انتشارهم في البـلاد ، ويسر عليهم الضرب في طولها وعرضها ، ومن لاحظ ما تفعله السيارة الآن في نفوس اصحابها ، ادرك جيدا ما كانت عليه نفوس اولئك القوم ، من الاستهانة بالمسافات الشاسعة ، والنزوع الى التهاب الابعاد القاصية .. فهم رحال غالبا ، ولا يطيب لهم المقام الطويل في مكان بعينه ، خصوصا اذا كانت الطبيعة لا تسعفهم ، وتحملهم دائما على الانتجاع والتوسع ...

وعلى هذا فلا غرو ان تكون الاقامة في مكان مـا اقامة موقتة ، تحت سقف الخيمة ، التي لا تقـام الا لتقوض بعد حين قصير ، ولكن بعد ذلك صارت كلمة الاقامة تدل على ما تدل عليه الآن ، من غير ما تكـون هناك خيمة ، ولا فرس ولا جمل ...

ومن ذلك كلمة نزل بالمكان .

وهذه كلمة ، لها اتصال بسابقتها بل هي اهـل بما عللنا به الكلمة السابقة ، ففلان نزل بالمكان ، اي نزل عن دابته ، او جمله ، او فرسه به ، لنفس العلة التي قدمت آنفا . ولكن هذه تخالف الاولى ، في مدة الاقامة ، حيث انها اقصر من الاولى ، لانها تستلزم اقامة الخيمة .

ومن ذلك كلمة حل فلان بالمكان .

اذا كان الاصل انه حل رحله به ، بعد ما نزل عن راحلته ، وهذه صارت ترادف سابقتها في معناها ، لان الانسان ـ عندهم ـ ربما حل ضيفا على غيره ، او نزل عليه ، فلا يكون هناك داع لاقامة خيمته ، ولا يطـول مكثه كثيرا ، وقد احسن من عرب كلمة HOTEL بالنزل ، لان الاصل HOSTEL ، بمعنى المثوى ، ماخوذا من الضيافة ، اما الذي يرادف الاقامة ، فهو التخييم ، فخيم بالمكان ، واقام به ، في معنى واحد ، ولهذا يقولون نزل بالمكان ، او حل به ، فاقام ، ولا يقولون العكس ، اقام بالمكان ، او خيم به ، فنزل ، او حل به .

ومن ذلك كلمة الوقوف

اذ الاصل في الوقوف ، انه معدى الى غيره ، قال تعالى « وقفوهم انهم مسئولون » ، وعلى هذا ففلان وقف بالمكان ، اي وقف دابته مثلا ، قال امرؤ القيس :

وقوفا بها صحبي علي مطيهم
يقولون لا تهلك اسى وتجمل

ثم تنوسي ذلك واستعملت كلمة الوقوف ، لازمة وشاعت في لزومها ، اكثر من تعديها . . .

ومن ذلك قطن بالمكان

اذا اقام به لا يبرحه . فهو ماخوذ من القيطون ، بمعنى المخدع ، او خيمة داخل خيمة ـ معرب من المصرية او البربرية . ومن شواهدهم .

اقاطن قوم سلمى ام نووا ظعنا
ان يظعنوا فعجيب عيش من قطنا

وفي القيطون يقول عبد الرحمن بن حسان :

قبة من مراجل ضربتها عند برد الشتاء في قيطون

وعلى هذا فالقطون يكون ادوم من الاقامة . فقالوا فيه اقام بالمكان ، لا يبرحه ـ بهذا القيد ـ وقالوا قطان مكة ، لانها مدينة ، يسكنون بها .

ومن ذلك عدن بالمكان

اذا اقام به لا يبرحه ، كذلك ، ومنه ـ في القرآن ـ جنات عدن ، اي جنات اقامة خالدة ، لان العدن في الاصل بطنان الاودية ، التي يستريض فيها ماء السيل ، فيكرم نباتها ، وتلزمه الابل فتألفه ولا تبرحه ، ومنه المعدن المكان الذي يثبت فيه الناس فيقيمون فيه ولا يتحولون عنه ، صيفا ولا شتاء ، ومعدن كل شيء ماخوذ من هذا المعنى ، لثبات الذهب والفضة به مثلا . ومنه سميت المدينة اليمنية « عدن » لان صاحبها « ابن الحميري » عدن بهذا الموضع ، ولم يرم عنه ويبرحه . .

ومن ذلك كلمة بلد

ماخوذة من بلد بالمكان أقام به ولم يتحول عنه ، وكل موضع قد استحيز فهو بلد ، والطائفة منه بلدة ، وسمي الجن ساكن البلد ، لانه ساكن الارض ـ كما يقولون ـ ، وسميت مكة بلدا لان اصحابها مقيمون بها ، كما سميت المقبرة كذلك ، لهذا السبب ، وكلمة البلد ، يمانية ، بمعنى الدار ، ولهذا قالوا « هذه الدار نعمت البلد » واثنوا ملاحظين ذلك ، وقيل للشيء الدائم « تالدبالد » ويقال « البد بالارض » اي اجلس واستقر ، وبلد القوم ، اي لزموها ، يقاتلون عليها ، وتبلد الرجل وقف متحيرا مترددا ، ومنه البلادة .

ومن ذلك سكن بالمكان

لانه يسكن فيه ولا يحيد عنه ولا يتحرك الى غيره ، فالموضع « مسكن » ، لسكنى الناس ، وسكونهم اليه . قال كثير :

وان كان لاسعدى اطالت سكونه
ولا اهل سعدى آخر الدهر نازله

وقالوا للجن سكان الدار ، لانهم مقيمون بها ، كما يزعمون ، وقد نهاهم النبي عن الذبائح التي كانوا يعتقدون اتقاء شرهم بها .

ومن ذلك كلمة الدار

فانها سميت بذلك ، ـ كما يقول ابن جني في الخصائص ـ لانها ماخوذة ، من دار يدور ، لكثرة حركات الناس فيها ، ودورانهم بها ، وسميت المقبرة دارا ، كما في الحديث ـ تشبيها لها بدار الاحياء ، وما بها ديار ، اي احد يدور بها .

فهي مأخوذة من « مدن بالمكان » اقام به ، وهو فعل ممات ، فهي مدينة على صيغة فعيلة ـ للمفعول ـ ونسبت اليها المدنية ، كما اشتق منها التمدن ، بمعنى العمران والحضارة ، فالعمران ، اصله من عمر الرجل بالمكان ، سكن فيه ، ثم دل على المدنية والحضارة ، واما الحضارة ، فهي من الحضور بالمدينة ، والسكنى بها ، ثم شملت كما يقول ابن خلدون « التفنن في الترف ، واحكام الصنائع المستعملة في وجوهها ومذاهبها ، من المطابخ والملابس ، والفرش وغيرها ، وهذا بالضبط ما اصاب التمدن ، فانه من تمدن الرجل ، اذا تخلق باخلاق اهل المدن ، من سكنى وغيرها ، ثم صارت الكلمة تدل على ما صارت تدل عليه كلمات الحضارة والمدنية والعمران . فيلاحظ في هذا ، ان العرب انتهوا الى منشأ الحضارة ـ وما يرادفها ـ هو الاستقرار ، بخلاف البداوة ، ولهذا قال النبي « من بدا جفا » ، وهذه الملاحظة العربية ، هي التي لوحظت تماما في كلمة civilisation الانجليزية والافرنسية ، او civilization الاسبانية ، فهي ماخوذة من civil اي مدني ، اما الالمانية فهي تستعمل في هذا كلمة Kultur ماخوذة من الكلمة اللاتينية coler بمعنى الفلاحة والحرث، في اصلها . . . والفلاحة والحرث ، مظهر من مظاهر الاستقرار ، لا محالة .. ثم استعيرت كلمة culture التي كانت تدل في اصلها على الفلاحة والحراثة فالتمدن والعمران والحضارة ، للتهذيب ، وهي على كل ما زالت متصلة بمعناها الاول الذي يناسبه التشذيب ، او التهذيب . . .



فهرس عام لتاريخ جامعة القرويين المعماري والفكري منذ ابتداء نشاتها الى الآن، استشار فيه المؤلف اكثر من مائة كتاب سواء فيها الكتب التي الفت بالعربية او بالفرنسية، وفي جملة ما اعتمده وثائق خاصة لم تنشر بعد، وكان الذي حدا به الى التفكير في اصدار هذا الكتاب الذي يعتبر الاول من نوعه ان يتقدم به كتحية لهذه القرويين وهي تشرف على ذكراها المائة بعد الالف، هذه الذكرى التي تقترن باستعدادها لاستقبال عهدها الجديد ...

والكتاب يقع في مائتي صفحة تقريبا ويشمل اكثر من مائة صورة ورسم، وسنعمل هنا على اقتطاف بعض الفصول منه في انتظار ان يمثل للطبع، انما نرجو من المؤلف ان لا يقتصد في طبع هذه الوثيقة التاريخية لاحدى مؤسساتنا العريقة ولا نغفل هنا عن لفت نظر الذين يعنيهم امر القرويين سواء من الجهة المعمارية او الفكرية او السياحية كذلك، ان يقدروا مجهود المؤلف، فيعملوا بدورهم على ان يبرز الكتاب في حلة تتناسب وعظمة هذا البيت الذي فرض وجوده طيلة هذه القرون، هذا البيت الذي « يدين له بالفضل كل من اختار العربية كلسان واستنام الى الاسلام كدين بهذه البلاد ... »

فـــاس

كم ينقل لنا التاريخ عن رؤساء استهوتهم المطامع، ونالت منهم كبرياؤهم منالها فبعثوا الى جوار قصورهم يطلبون منهم التسليم فيما يملكون ليصبح القصر اوسع والحقل امتع نظرة، فاما ان يذعن ذلك الجار ويستجيب لرغبة التوسع التي شاءها السيد، والا كانت القوة جوابه، والطرد مصيره المحتم ... هكذا اعتدنا ان نسمع عن كثير، فهل كان ادريس مؤسس مدينة فاس من هذا الكثير ؟ لا ! انه لم يكن من اولئك الذين يفرضون رايهم، او يملون ارادتهم دون حساب للغير، ومن غير اعتبار لمنطق العدل والانصاف، بل انه كان من الافراد الذين يشعرون نحو الغير بنفس الشعور الذي يعرفونه لنفوسهم ...

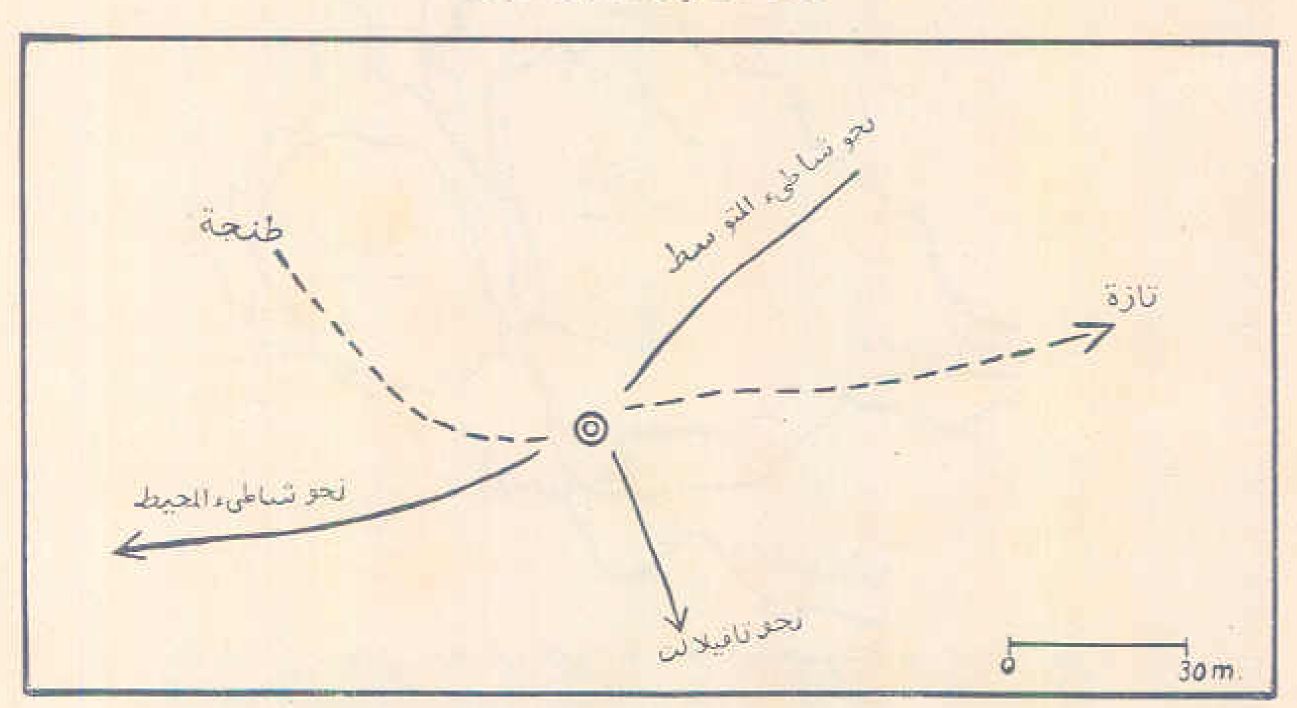
لقد ضاقت مدينة « وليلي » بمن قصدها من انصاره، من كل مكان، وحتى من افريقيا والاندلس واصبح ادريس في حاجة ملحة للتفكير في استبدالها بمدينة اكثر وسعا واعذب ماء، واجمل موقعا بعيدة عن فحيح الصحراء، ورطوبة البحار وعواصف الجبال « وركب في خاصة من قومه ليختار بنفسه ... واخيرا

وقع اختيار وزيره عمير بن مصعب الازدي على «غيضة ملتفة الاشجار مطردة العيون والانهار»

ترى ما كان من ادريس وقد قدم له الوزير تقريره حول المكان الجديد ؟ لقد سأل عن ملاك الارض لانه لا يرغب في ان يشيد عاصمته على جماجم المظلوميـــن والمغصوبين ... وهكذا ساوم الزواغيين في الثمن ولم يكتف بما يسمونه اليوم « التعويض الرمزي » بـــل أرضاهم في مطالبهم كاملة غير منقوصة . واشترى منهم أرض المدينة اذ ذاك بستة آلاف درهم . وناهيك بهذا العوض على ذلك العهد . ودفع لهم الثمن واشهد عليهم به في صك حرره كاتبه الخاص عبد الله ابن مالـــك الانصاري الخزرجي سنة احدى وتسعين ومائة (806 — 807) .

وفي غداة كانت غرة ربيع الاول من سنـــة 192 هجرية (4 يناير 807) ورد ادريس لعين المكان ليختط الشوارع والابواب على ضفاف وادي الجواهر . وقبل ان يأخذ بالمعول . رفع يديه الى السماء في خشوع المسلم المومن يقول « اللهم اجعلها دار علم ... » ووضــــع الحجرة الاولى للمدينة . ولكن كانما وضعها لحي علمي دائم الحياة . فلقد ظلت منذ كانت « قاعدة بلاد المغرب وقطرها ومركزها وقطبها » اذ كانت ارض الميعاد لكثير من العلماء والفقهاء والادباء والشعراء والاطباء وغيرهم .

رسم : فاس في مفترق الطرق



العدوتان

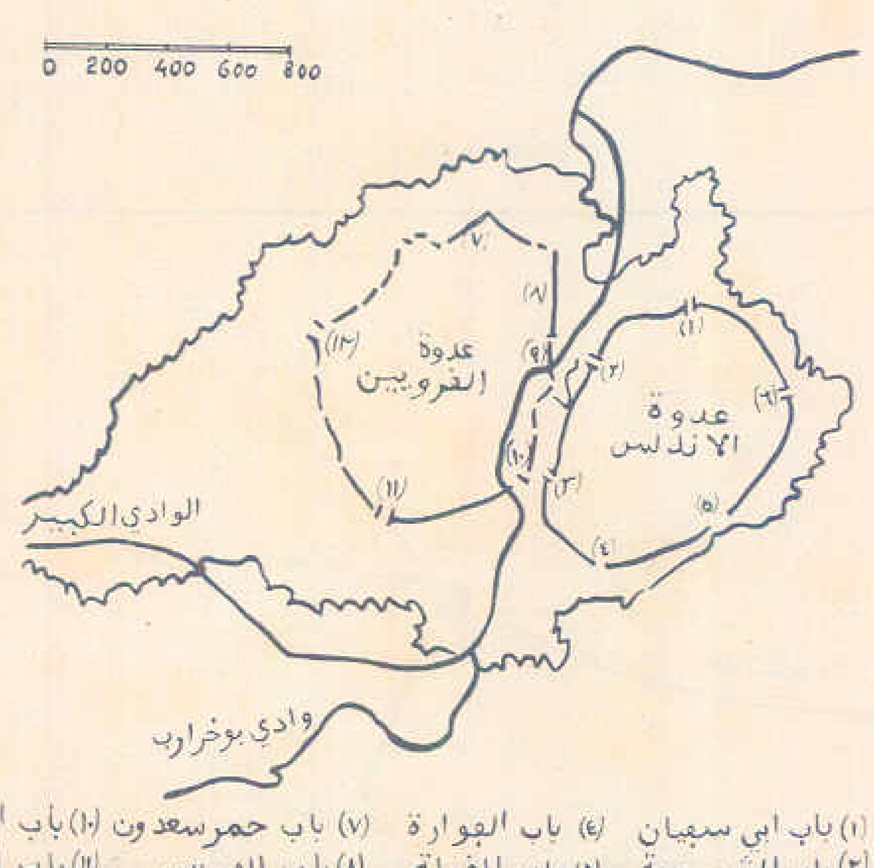
ليست الاحداث السياسية وليدة اليوم . كمـــا وليس الاضطهاد السياسي ظاهرة من الظواهر التـــي عرفها الانسان في هذه الظروف. لذلك فلقد عرفت فاس منذ كانت لاجئين اتخذوا منها وطنا ثانيا . فمنهم الآلاف وردوا من الاندلس . ومنهم مئات وردوا من القيروان ... وعني ادريس الثاني بضيوفه . فكان اول ما فعل ان خصص الجانب الشرقي للسادة الاندلسيين في فاتح ربيع الاول 192 (4 — 1 — 807) فعرف بعد بعدوة الاندلس . ثم بعد نحو من سنة (1) اي في فاتح ربيع الثاني 193 (22 — 1 — 809) خصص لاقامته هــو مع فريق آخر من القيروانيين الجانب الغربي ونســب هذا الجانب من المدينة لهؤلاء الســادة ... وهكـــذا

(1) ترى كتب التاريخ المتداولة ان بين العدوتين سنة واحدة ، وان مؤسسهما معا هو ادريس الثاني... ويرى الاستاذ الشهير ليفي بروفنصـــال « استنادا على وثائق فيها النقول العربية ، ومنها بعض القطع النقدية » ان بين المدينتين عشرين سنة كاملة. وان مؤســس عدوة الاندلس هو ادريس الاول بينما كانت عدوة القرويين من عمل ادريس الثاني ...

اصبحت فاس عدوتين : عدوة الاندلس ، وعـــدوة القرويين ... واقتضت همة ادريس ان يخلق مـــن «الغيضة» عاصمة لدولته، فشجع الناس على التشييد والتعمير ، ونودي فيهم ان سارعوا الى احياء الارضين فان كل من بنى موضعا او اغترسه قبل ان يتم بنـــاء السـور المحيط بالعدوة كان له ان يتصرف فيه تصرف الملاك ، وهو له من ادريس منحة » !

وتسارع الناس يتنافسون ... وكان منهم رجل فاضل من هوارة (2) عني بقطعته واصلحها فكانت خيرا وبركات عليه .

وسم : العدوتان كما يراهما بروفنصال



مسجد فاطمة ...

وكان فى عداد المهاجرين التونسيين الذين التجأوا الى فاس منذ ايام يحيى الاول الادريسي، السيدمحمدبن عبد الله الفهري القيرواني الذي توفي أثر وصوله، وترك ثروة طائلة لكريمتيه : فاطمة ومريم ، فماذا تصنعان بهاً؟ هل فكرتا فى أن تنميا ثروتهما عن طريق ما من الطرق؟ لو فعلتا لاصبحتا فى عداد الملايين الذين ذهب ذكرهم حينما غابوا عن هذا العالم ، لكن تفكيرهما كان ساميا ، وهكذا فقد حققتا مشروعا ظل الى اليوم شاخصا ناطقا يرفع من شأن المرأة العربية الى الابد ... لقد كثـــر الوارد على فاس ، وامسى الناس فى حاجة الى مسجد جامع كبير فان مسجد الشرفاء بالعدوة الغربيـــة ، ومسجد الاشياخ بالعدوة الشرقية ، كل منهما اضحى

---

2) قبيلة تقع بين فاس وتازة

لا يفي بحاجة الناس ... فلتتطوع فاطمة ام البنين ببناء مسجد في تلك المنطقة ... ولتقم اختها مريم بنفس المهمة في هذه المنطقة ولم يقع اختيار فاطمة الا على الحقل الذي ورثته عن ابيه ذلك الشاب الهواري . ودفعت فاطمة الثمن من مالها الحلال الطاهر . واخذت تستعد للبناء في جزء من الحقل .. وان الله طيب لايقبل الا طيبا ؛ فعلى فاطمة ان تتحرى في البناء الوسائل النظيفة التي تبعد المسجد عن كل ما يشين ، ولقد كان مما ادخل البهجة « دون شك » على قلب فاطمة ان وجدت بالمكان معدنا للحجر والرمل الاصفر ، وعثرت الى جانب هذا على بئر عليها ، كان المسجد يعتمدهطيلة سنواته الاولى ... ان كل شيء هنا ، فلتضف فاطمة الى صنيعها هذا ان تصوم احتسابا حتى يتم البناء .

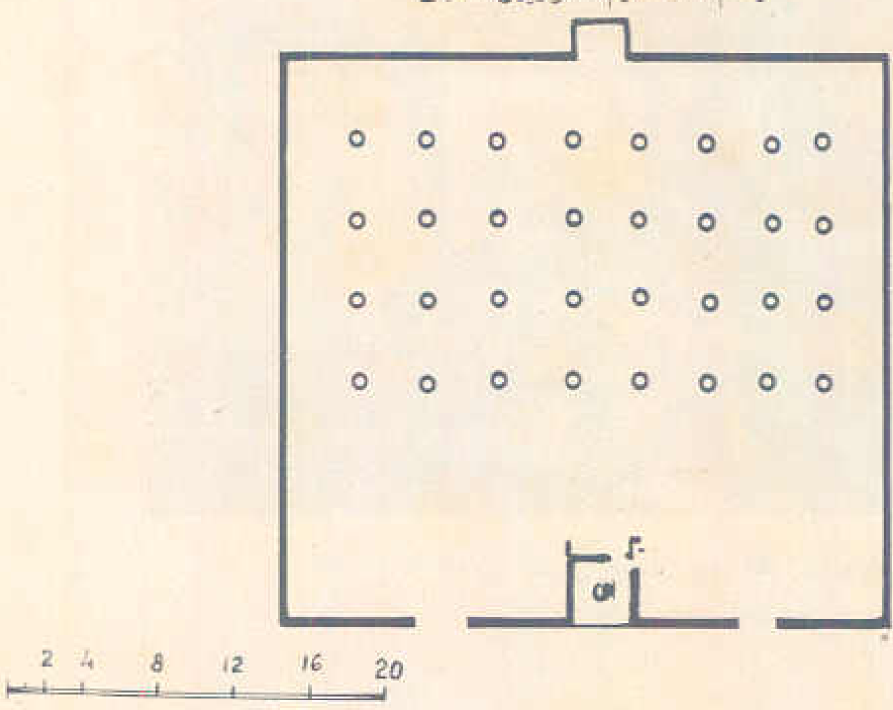
وكان الشروع في العمل في غرة رمضان 245 (30 نونبر 859)

القرويين الاولى « 245 هجرية - 860-859 ميلادية »

وكان تصميم القرويين الاولى مربعا على نحو ما ينبغي ، الا ان تربيعه لم يكن تاما ، فطوله من شرق الى غرب مائة وخمسون شبرا ؛ اي ما يعادل اثنين وثلاثين مترا وخمسة وعشرين سنتيما (1) : وعرضه من الجنوب الى الشمال مائة واربعون شبرا ، اي ما يعادل ثلاثين ميترا وثلاثة وخمسين سانتيما فتكون مساحة المسجد : اربعة وثمانين وتسعمائة ميتر مربع تقريبا .. لقد كان يتركب من اربع بلاطات تمتد افقية من الغرب الى الشرق ، تنتصب صومعته بالمكان الذي توجد فيه العنزة اليوم ، اعني بمؤخر الصحن القديم الواقع على حدود البلاطات الاربعة ؛ اما المحراب فقد كان في « مقدم البلاط الذي يوجد امام الثريا الكبرى اليوم » .

هذه هي القرويين الاولى ، وقد بقيت منطقة في شرقها وغربها وشمالها في عداد الارض التي اشترتها فاطمة ، بيد انها ظلت عارية عن البناء ، وفي الناحية الشمالية منها يقع بئر القرويين الذي يسميه سدنة البيت « البئر المغمور » ...

رسم : تصميم القرويين الاولى

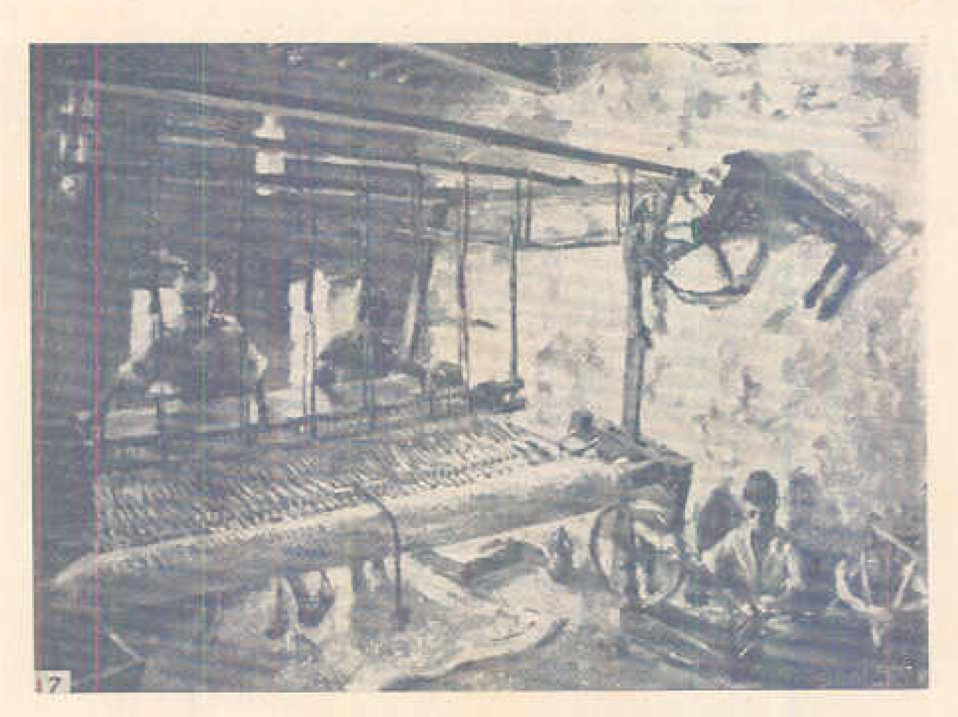


---

1) يتضح من خلال حساب بعض الاماكن التي ما تزال شاخصة منذ العصور الاولى ان الشبر الذي يقدر به المؤرخون يساوي واحدا وعشرين سانتيما ونصف السانتيم ، فلا مجال اذا لاستشكال الاستاذين : الفريد بيل وريكار .

نقل الخطبة الى القرويين

والقرويين » ولو انها اكثر مساحة من جامع الشرفاء » ظلت منذ تأسيسها مسجدا لاقامة الصلوات الخمس دون أن تقام فيه صلاة الجمعة . ذلك لان الناس لم يكونوا من الكثرة بحيث يضطرون لاتخاذ القرويين مسجدا جامعا . . . لكن لما كثرت العمارات واتصل البناء في ارباض المدينة من سائر الجهات . فكر المسؤولون في ان يجعلوا من القرويين جامعا للخطبة . . . وهكذا فعلى اثر انهزام موسى ابن ابي العافية امام جيوش حميد بن سهل قائد عبد الله المهدي صاحب افريقية . وعلى اثر تنصيب حامد ابن حمدان الهمزاني عاملا على فاس من لدن القائد حميد سنة 307 ، 919 ـ 920 ، اصدر العامل امره باقامة الخطبة بجامع القرويين بدلا من جامع الاشراف . ولم يكن ينقص القرويين لتصبح مركز خطبة كل جمعة الا ان يصنع له حامد منبرا من خشب الصنوبر . ولقد كان اول استاذ صعد منبر القرويين كخطيب هو الفقيه ابو محمد عبد الله الفارسي .



« النساج » للفنان المغربي مختار عبد الله ـ تطوان

معرض الفنانين المغاربة



للاستاذ : الحسن السائح

لقد بعثت الفلسفة الاغريقية من جديد في المدرسة الفلسفية المغربية التي انجبت خلفاء فلاسفة اليونان امثال ابن باجة (دفين فاس) وابن الطفيل (دفين مراكش) ، وابن رشد الذي قضى شطرا من حياته بعاصمة الموحدين شارحا النظريات الارسطالية حتى اعتبره مؤرخو الفلسفة المعلم الثاني ...

ولم يكن معنى هذا الانبعاث الاغريقي في الفلسفة المغربية ان عقليتها بقيت عالة على الفكر اليوناني ، بل انها استطاعت ان تجوب مجاهل لم يخضها اليونانيون من قبل ، وكان من الرواد الاوائل لهذه المجاهل العميقة السيكلوجي الكبير ، وفيلسوف الصوفيين ، محيي الدين ابن العربي المشهور ، الذي نريد في هذه العجالة ان نلقي نظرة على بعض نظرياته المهمة .

درج المؤرخون على ان يذكروا ابن العربي في عداد المتصوفة ، وان يتركوا الفلسفة بمعزل عن دراسة اثمن مخلفاته التي تكاد توازي لب ما اهتدت اليه عبقرية علماء النفس المعاصرين امثال برجسون وفرود ...

وقد تجوز لنا المقارنة بين فيلسوفين عظيمين من المغرب وهما ابن العربي وابن رشد . فقد صادف ابن العربي عقبات ومؤامرات تجيز لنا التشبيه بينه وبين الفيلسوف الكبير ابن رشد ، فكما كان هذا الاخير موضع ارتياب الفقهاء ، وهدف نقد الحكام والعلماء ، حتى اضحى غريبا بين اهله ، واصبح موضع انتقاد وكراهية سواد الامة ، ثم هدف سهام القاضي ابن ابي الحسين بن ربيع ، والخطيب الاندلسي ابي علي بن حجاج ، وغيرهما ، مما ادى به الى الاضطهاد والنكبة القاسية المشهورة ؛ فكذلك كان ابن العربي ، الذي رغم تسلحه بمظهر التصوف لم يصرف ذلك معاصريه عن النيل من فلسفته وآرائه ، ثم اتهامه بالمروق ، مما اضطر فريقا من علماء عصره الى الدفاع عنه ، كرضي الدين بن الخياط ، وكمال الدين الزملكاني ، وصلاح الدين الصفدي ، وقطب الدين الحموي ، والسهروردي وفخر الدين الرازي ، والبلقيني ، وابن السبكي ، والسيوطي ... بينما كان ابن تيمية يتهمه بافساد الدين ، كما يتهمه بذلك ابن اياس ، والتفتازاني ، وجمال الدين بن نور الدين ، والحافظ الذهبي .

ولا اريد هنا ان اقارن بين ابن رشد وابن العربي ، فالفرق بينهما من الاتساع بحيث لا يتأتى لنا ان نقارن ؛ ولكن المجال الوحيد لهذه المقارنة هو غرابة الشخصيتين في عصرهما .

فاذا كان ابن رشد ، الذي عاش في بيئة مسلمة سنية ، وفي بلاط متشدد في الابحاث الدينية كبلاط الموحدين ، ينتحل فكرة الاتفاق العام ؛ ويقول بالفصل بين العقل الفعال والعقل الهيولي؛ او العقل المؤثر والمتأثر ويرى مذهب وحدة النفوس ، ويقول في التصوف بالاتصال او الوحدة ، ثم يتهم الغزالي وهو اعظم فيلسوف مسلم ... بل ويرى كثيرا من الآراء الجريئة والشاذة في بيئته ووسطه ، فان ابن العربي كان ينتحل افكارا لا تقل جراة وخطورة عن افكار ابن رشد ، وكفى ان يكون مذهبه في وحدة الوجود بحيث يجاوز فيه مفاهيم المتصوفة الذين ثار ضدهم العلماء والفقهاء ؛ اذ يرى ان الوجود حقيقة ، والتعدد انما هو امر قضت به الحواس الظاهرة .

وفي كتابه القيم (الفتوحات) عبارات تؤدي معنى هذه الفكرة صراحة ، كما ان في كتاب الفصوص ابياتا

تشعر بهذه النظرية التي لا يمكن ان يقبلها علماء الاسلام السنيون او يحتملوا تاويلها ، لانها فلسفية محضة ، كان اقل منها يثير حمية المفكرين السنيين ...

بل ان فكرته هذه لا تبعد عن المذهب الذي ذهب اليه سبنوزا من بعده في الوحدة ، وكان سبب الحملة القاسية على الفيلسوف الغربي من لدن معاصريه .

ولو ان آثار ابن العربي كانت مترجمة في عهد سبنوزا لما كان لهذا الفيلسوف اي فضل على الفكر الفلسفي بعد فلسفة ابن العربي .

والطريف في نظريات ابن العربي هو اهتداؤه بالصوفية وحدها الى آراء ونظريات تدخل في ميدان العلم الفيزيقي وحده . كقصة اختزال الاصوات في الفضاء وحفظها في بعض طبقاته ، ثم القدرة على جلبها لو تأتت لنا المقدرة لاستنزالها ...

كما ان لابن العربي رايا خاصا في تفسير (الكلمة) وفي شرحها الصوفي ، ولعل رايه فيها هو اول راي اسلامي في معالجة هذا الموضوع الخطير الذي اثار كثيرا من المناقشات .

وباختصار فكتابه (الفتوحات المكية) يعتبر اروع بحث مستفيض في التحليل الصوفي والنفسي والفلسفي ، وهو جدير بقول بعض النقاد المحدثين « **لا يليق بعالم او اديب او متصوف ان يبقى بدون المام بهذا الكتاب الذي يعد فريداً في بابه في سائر اللغات** » .



« حديقة الاوداية » للفنان المغربي قدميري محجوب الرباط
معرض الفنانين المغاربة



الاستاذ السيد محمد اليمني الناصري شاعر مغربي يقيم الآن بالديار المقدسة بالحجاز .

غادر المغرب منذ حوالي سنة 1937 مديرا لبيت المغرب بالقاهرة ، ومشرفا على شؤون اول بعثة من الطلبة المغاربة الذين توجهوا اذ ذاك الى ارض الكنانة لاتمام دراستهم ، الى ان اختار اخيرا ان يقيم بالحجاز .

وقد انشد سيادته هذه القصيدة او هذا (الموشح) بمناسبة الزيارة التي قام بها الى المملكة العربية السعودية ، في غضون الشهر الماضي ، ولي عهد المملكة المغربية سمو الامير الجليل مولاي الحسن .

ان لي عهدا جميلا سلفا
وله قدمت عهدي سلفا
والصبا قد جر ذيل المرح
والصبا قد هز عطف المرح
والهوى لم يدر معنى الترح
حيث كنا بين اخوان الصفا
والمنى تمرح في جو صفا
والبساتين لنا منتزه
ورفاقي الغر حر آنزه
وعزيز نبله قد عزه
وابو رقراق رقراق نفا
كان لي من كل هم كنفا
يا له نهرا جميل الضفتين
فهو لفظ لمعاني العدوتين
وهو كالروح سرت في مهجتين
كلما جزت به منعطفا
وانا بين رفاق لطفا
والبساتين به قد احدقت
وعيون الزهر فينا حدقت
قيدتنا بالهوى مذ اطلقت

برباط الفتح فخر المدن
موقظا ما قد غفا من فطن
في رياض الانس ما بين الصباح
باناشيد الهنا حتى الصباح
في مباح قد حوى كل مباح
نتملى بانقياد الزمن
نجتني منها جنى العيش الهني
عرفها يزري شذا المسك الذكي
واديب نير الفكر ذكي
ونسيب طيب الاصل زكي
ماؤه الريق عني حزني
صفوه يفري رؤوس المحن
يبعث البهجة في نفس الحزين
وهو معنى شيق يذكي الحنين
لصداه العذب في النفس رنين
اسكرتني نغمات الاغصن
بهم صرت قرير الاعين
نفحها ينعش ارباب الغرام
حدق الانس بها ليست تنام
روحها فينا فازرى بالمدام

وذوو العلم بهـا والشرفـا
وانا انشدهم مستشرفـا
ولكم من محفـل كنـت بـه
وازيح الستـر عـن مشتبـه
وازف الحـق للمنتبـه
فحما من كل قلب اغلفـا
وجلا عن كل وجه اكلفـا
ولنا في نهضـة الشعـب شفـوف
وبنا قد نوهت كل الصفـوف
قد غدا من شأنها صرف الصروف
كم وقفنا بحماها موقفـا
ننشر العلم ونحيي السلفا
حيث الاستقلال أرسى اسـه
وغدا يرفع فينـا رأسـه
ولقد اغمـد فيهـم فاسـه
لم يزل يضرب وجها وقفـا
سل الاستقلال سيفا مرهفـا
ومليـك الشعب يرعى نهضتـه
كـان حقا حيـن امطى وثبتـه
ويعيـد العرش فينا عزتـه
وولـي العهـد عنـا صرفـا
مـذ تجلى كلنا قد عزفـا
سيـد الشبـان فخـر الامـرا
فـاق فضـلا فالثريـا كالثـري
فلـه من جـده خيـر الـورى
جاء يستجلي جمال المصطفى
فتملـى بقبـول واصطفـا
انجز اليمن له وعـد السعـود
ورأى الاقبال من خير الوجـود
وغدا يسبح في نـور الشهـود
فجنى ما قد جنى واقتطفـا
في مقام نـوره قـد كشفـا
ركبه الميمـون حظا ، نخبـة
فانثنت بالنصر منهـم وثبـة
ولقد مـرت عليهـم حقبـة
غير ان الصبر بالوعد وفـا
ليس كالاخلاص اس قد شفا
وسعـود الشرق حامي الحرميـن
فتلقى في اسمه مـن دون ميـن
وزهى انسا وقرت منـه عيـن

يتساقون كـؤوس اليمـن
اذ تنادوا : ايه يا ابين اليمنى
اوقظ الفكر واسمو بالشعـور
ليـرى عورتـه عمي وعـور
في بيان كلـه حسـن ونـور
ظلمة الجهل وغين الوسـن
كلف الاذعان للخصم الدني
شف عن صدق واخلاص متيـن
وهي تفري من بني السين الوتين
عن بلاد زانهـا خلق وديـن
قد اعاد الـروح للمستكـن
ونادي : وطني يـا وطنـي
ينشـد الوحدة في كل النـواح
والعـدا لم يجدهم فرط النـواح
مثخنـا فانظر لاثخان الجـراح
منهم حتى قضوا من وهـن
حز بالصبر رؤوس الفتـن
ويغـذيـه بعـزم لا يليـن
ان ينـال اليـوم نصر المومنين
ظافـرا بالعـز والفتـح المبيـن
وحشة البين بوجه حسـن
يـا هنانـا بالامير الحسـن
كامـل الخلـق امير الاطلـس
منـه بـل خلق فوق الاطلـس
كـل خيـر مستفيـض انفـس
في حمى مـن حلـه لـم يهـن
وتحلـى بسنـى السنـن
فحوى في طيبـة مـا قد نـوى
وحظي بالوصل من بعد النـوى
حينما ابصر سلعا والـلـوى
من معان دونها البدر السني
عن جمال بـذ اهـل اللسـن
جاهدوا من اجل تقرير المصيـر
قد تولـى رعيهـا نعم النصيـر
في بلايـا مالهـا قـط نظيـر
واتـى بالظفـر المستيقـن
اي داء معضـل مكتمـن
قـد تلقـاه ببشـر واحتفـال
– وهو ميمون اللقاء – احسن فـال
بالذي شاهد من حسن اقتبـال

حل من قصر الرياض الغرفا
واجتلى فيه لعمري طرفا
كيف لا وهو اخ زار اخا
يا اخاء جر مجدا ورخا
وبه المغرب باهي ونخا
هكذا الاسلام دين الفا
تجعل الشرق لغرب مالفا
ايها الساري على ضوء الهدى
ومقام من اتاه سعدا
ذكريات تملأ الكون صدى
كل من ينهج نهج الحنفا
كيف لا وهي تزيح الدنفا
سيدي بلغ امير المومنين
وولائي ودعائي كل حين
بتمام النصر والفتح المبين
دعوات فيضها قد وكفا
نصره بالله نصر وكفى

فرأى فيها فنون الحسن
وصفها يعجز فصح الالسن
فهو رمز للاخاء الابدي
لكلا القطرين طول الابد
ولنجد فيه اقوى عضد
بين اقطار سمت بالوطن
فاذا الفرق كرجس الوثن
هذه مكة والبيت العتيق
وهو بالامن مدى الدهر حقيق
وعلى ايقاعها يذري العقيق
في هواها للسوى لم يدن
وبها تمت حياة البدن
ملك الشعب سلامي العاطرا
بالذي يشرح منه الخاطرا
ودرور اللطف غيثا ماطرا
ونمت منها ثمار المنن
انه للشعب اقوى جوشن



« ابو رقراق » النهر الجميل الذي يفصل بين مدينتي « سلا » « والرباط » ، وفوقه قنطرة مولاي الحسن ، التي انجزت في عهد الاستقلال . تبدو في الصورة مدينة « سلا »

ابن خلدون ومذهبه في الملكات



اعتقد قديما بسلسلة من العقول يتفرع احدها عن الآخر ، كالعقل المجرد الذي هو عند افلاطون وغيره من الفلاسفة الالهيين العلة الاولى (الله) . وعن هذا العقل تستمد المادة الادراك والحركة ، وتستمر بفضله في معارج الرقي والكمال كلما استطاعت التخلص من التجسد الى التجريد ، ثم ان المتحرك في طلب الكمال لابد ان يكون عاقلا ، ومن ثم ان تكون للكواكب عقول ترتفع بما فيها من التشوق الكمين فيها ، الى العقل الاول او المجرد الذي هو الله .

والجوهر الخالد في الانسان عند ارسطو هو العقل، وهو (اي العقل) عند ادراكه المجردات او الكليات يتحرك نحوالعقل الفعال الذي هومرجع جميع المعقولات. والنفس عند افلوطين ، رأس الافلاطونية الحديثة (204 م) ، عند ما تتجه الى العقل تنسجم معه في مقام التجريد والتنزيه، فاذا اتجهت الى الهيولي (المادة الاولى) كان معنى ذلك ابتعادها عن ذلك التجريد ، وهذا التنزيه الذي هو في نفس الوقت ابتعاد عن العقل الفعال المشرف على ما تحت القمر وعلى عالم الانسان فيه .

ومثل هذا الاعتقاد لا نعدمه عند الفلاسفة الاسلاميين ، فالمعلم الثاني (الفارابي) وتلميذه (ابن سينا) الشيخ الرئيس ، يعتقدان ، ومثلهما ابن رشد ، ان تمام الجسد هو النفس ، وتمام النفس هو العقل ، الذي باتصاله بالجسد يترقى من العقل الهيولاني الذي هو عقل الغريزة - ويكاد الانسان والحيوان يتساويان فيه - الى العقل بالملكة، وهوعقل المعلومات التي هي حصيلة التجارب الناشئة عن الحس والمعارف المرتبطة بالاشياء المادية ، والعقل بالملكة يترقى بدوره الى العقل بالفعل ، لان الملكة تختلف بحسب كمية البديهيات ، وحسب كيفية قوة النفس على الانطلاق من تلك البديهيات الى المقاصد ، ثم الانتقال من المبادىء الى المقاصد الفكرية المعتمدة على البراهين والادلة بحيث يكون بوسع الانسان استحضارها متى شاء ، لانها لن تكون بالفعل حاضرة ، فامكانية استحضارها هو ما سموه بالعقل بالفعل ، فاذا حضرت الصورة العقلية بالفعل ، كان ذلك هو العقل المستفاد الذي يربط العقل بالفعل ، بالعقل الفعال ، الذي هو عقل النفس القدسية، والذي ياتي في المرتبة الثالثة من مراتب الوجود التي هي :

1) الوجود الالهي
2) وجود العقول المتدرجة
3) وجود العقل الفعال

وقصدهم من هذا ان يفهمونا كيف يكون التعدد عن الواحد الذي لا يتعدد، ومأتى الصلة بين المحسوسات والمعاني المجردة .

والمطلع على رسالة ابن سينا في النفس ، لا ريب انه وقف على تقسيمه للنفس - شأن ارسطو - الى .

1) **نباتية :** (وهي كمال اول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولد وينمو ويغتذي) .

2) **حيوانية :** وهي (الكمال الاول لجسم طبيعي آلي من جهة ما هو يدرك الجزئيات ويتحرك بالارادة)

3) **انسانية :** وهي كمال اول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الافاعيل الكائنة بالاختيار الفكري والاستنباط بالراي ، ومن جهة ما يدرك الامور الكلية .

وهو يذكر لكل من هذه النفوس الثلاثة قوى مختلفة يهمنا منها بالذات ما يتعلق بالنفس الانسانية والحيوانية وهي تنقسم الى قوتين رئيسيتين:

1) محركة . - 2) مدركة .

فالمحركة على قسمين :

1) اما محركة باعثة

2) واما محركة فاعلة .

فالمحركة الباعثة هي القوة النزعية ، ولها شعبتان: احداهما تدعى قوة شهوانية ، بينما تدعى الاخرى قوة غضبية .

اما المحركة الفاعلة فتنبعث من الاعصاب والعضلات ، فتجذب الرباطات والاوتار المتصلة بالاعضاء الى نحو جهة المبدا ، او تمددها طولا فتصير الاوتار والرباطات الى خلاف جهة المبدا .

اما القوة المدركة فاما ان تكون من خارج ، وهي الحواس الخمس، واما ان تكون من باطن ، فبعضها قوى تدرك صور المحسوسات ، وبعضها قوى تدرك معاني هذه المحسوسات ، ومن القوى المدركة الباطنة قوة فنطاسيا (1) (الحس المشترك) ، وهي التي تقبل جميع الصور المنطبعة في الحواس الخمسة متأدية اليها، ثم الخيال ، والمصورة ، ثم القوة التي تسمى متخيلة بالنسبة للنفس الحيوانية ، ومفكرة بالقياس الى النفس الانسانية ، وهي مرتبة في التجويف الاوسط من الدماغ تدرك المعاني الغير المحسوسة الموجودة في المحسوسات الجزئية ، اما النفس الناطقة الانسانية فتنقسم قواها الى : 1) عاملة . ـ 2) وعالمة .

وكل واحدة من القوتين تسمى عقلا باشتراك الاسم، ثم ان للقوى ثلاث معان : 1) قوة الاستعداد المطلق الذي لا يكون خرج منه الى الفعل شيء ، ولا حصل ما به يخرج ، كقوة الطفل على الكتابة .

2) قوة الاستعداد اذا لم يحصل للشيء الا ما يمكنه به ان يتوصل الى اكتساب الفعل بلا واسطة ، كقوة الصبي الذي ترعرع وعرف القلم والدواة وبسائط الحروف على الكتابة .

3) قوة الاستعداد اذا تم بالآلة وحدث مع الآلة ايضا كمال استعداد ، كقوة الكاتب المستكمل الصناعة اذا كان لا يكتب ، فالقوة الاولى تسمى مطلقة ، والثانية تسمى ممكنة ، والثالثة تسمى **ملكة** (2) .

ولعلنا مما تقدم نستطيع ان نلاحظ هنا بتدقيق مدى ما ذهبنا اليه في مقال (الفكر الانساني كما يراه ابن خلدون) من ان ابن خلدون متأثر بالرئيس ابن سينا وغيره من الفلاسفة الالهيين ، كما نستطيع ان نلاحظ ايضا مدى ولوع الفلاسفة الاقدمين بالتجزئة التي لم تقتصر على النفس وحدها ، ولا على تعدد العقول التي فتح فلوطين فيها الباب للمعلم الثاني (الفارابي) حتى وصلت على عهده وعهد أتباعه عشرة ، والحمد لله على الاكتفاء بهذا العدد كما يقول الاستاذ بولس سلامة في كتابه (الصراع في الوجود) .

بل الواقع ان الفلسفة اليونانية والعربية لم تكتف بتفريعات العقول والنفوس وقواها ، بل عمدت الى تقسيم وتفريع العقل الانساني نفسه الى قوى وملكات عديدة ، لقد قسموه الى ثلاث قوى رئيسية :

1) الفكر .
2) الوجدان .
3) الارادة او النزوع .

ثم قسموا هذه الى اقسام اخرى هي ما يعرف لديهم بالملكات العقلية : ملكة للتذكر ، وملكة للخيال ، وملكة للملاحظة ، واعتقدوا ان كل قسم منها يمثل ملكة او قوى للتنمية والتقوية بالتمرين .

ونظرية الملكات هذه لم تعدم لها انصارا عند فلاسفة اوربا ، فهذا لايبنتز (1646 م ـ 1687 م) ومعه هملتون ، يعرفها بأنها نوع خاص من الادراك ، بسبب العمل العقلي، اما جون لوك الانجليزي (1632 ـ 1704 م) فقد توسع في ذلك فافترض لكل عمل عقلي ملكة خاصة وتبعه كثيرون ، فقالوا الملكة الخلقية ، (وكان ابن سينا يجعل الخلق ملكة) والملكة المميزة ، وملكة التصور ، وقال « فروبل » (1782 م ـ 1852 م) ملكة الكلام ، كما قال ابن خلدون قبل ذلك بما يزيد على ثلاثة قرون ملكة الحساب ، وملكة اللغة ، وملكة التجارة، وملكة التعليم كما سنرى ذلك فيما بعد .

ولعل من المهم ان نذكر ان فكرة التربية الترويضية او التدريبية التي تأخذ مكانا بارزا في تاريخ التربية ، ترتكز في أساسها وتعليلها على مذهب الملكات العقلية ، ومجمل هذه الفكرة ، ان الفائدة من التربية والتعليم ، تنحصر في سير التعليم وما ينتج عنه من النضج العقلي، بينما تبقى اهمية ما يدرس ، ثانوية في نظر أصحاب هذه الفكرة .

وجوهر المسألة عندهم ان العمل الفكري ـ اذا عني باختياره ـ يولد ملكة او قوة عقلية تفوق باهميتها القوة والنشاط اللذين يصرفهما المرء في توليدها ، وهذه الملكة الجديدة صالحة للاستعمال في مواضيع وابحاث جديدة قد لا يكون لها علاقة بالموضوع الذي اوجدها .
ومن ثم برروا وجود اللغات القديمة في مناهج الدراسة ، وذهبوا الى انها تفيد الطالب بان تولد فيه ملكة تساعده على القيام ببقية الامور العقلية ، فكما ان التوسع في المنطق والجدل والرياضيات ، يولد في العقل قوة المحاكمة الصحيحة التي تساعده في بقية الاعمال العقلية ، كذلك درس اللغات والآداب القديمة ينمي قوتي الحافظة والذاكرة وان لم يكن للآداب فائدة حيوية محسوسة (3) .

---

1) كلمة يونانية يقصد بها التخيل عند ارسطو ويقول انها مشتقة من (فاوس) أي النور ، ولا يسميها ابن سينا بالتخيل او المتخيلة بل بالحس المشترك ، راجع رسالة ابن سينا في النفس تحقيق الدكتور احمد فؤاد الاهواني ص 28 .
2) نفس المصدر من 57 الى 66 مع اختصار وتصرف .
3) تاريخ التربية تأليف عبد الله مشنوق ص : 151 .

وليست هذه النظرية في الحقيقة الا سلاحا تذرع به الرجعيون ليتمكنوا من مجابهة اصحاب التربية الواقعية التي حصرت الاهمية في الشيء المقصود تدريسه واهملت الاسلوب والطريقة . كما ان الكنيسة استخدمتها كسلاح لتوطيد نفوذها . وهي التي تنظر الى التربية كترويض خلقي . كما وجدت النظرية الترويضية الاقبال من لدن المتشبثين بمنطق ارسطو وعلم النفس القديم . وهو يقضي بوجوب تدريب قوى العقل واجهادها بدروس صعبة كاللاتينية .

ويقول احد المناصرين لنظرية التدريب العقلي (فوييه) ردا على (هاكسلي) الذي يقول بجعل العلوم الطبيعية اساسا للتعلم :

(فاذا درسنا أصول العلوم الطبيعية فاننا نتوصل الى معرفة صنع السكك الحديدية والقطار البخاري ، ولكن الذي اخترع هذا القطار لم يتوصل الى اختراعه بدرس العلوم ، ولكن بمقدرته العقلية وقوته الفكرية ، وهذه القوى لا تتولد بتعلم طرق العلم الحديث ، وانما تنشأ بتنمية قوى العقل وملكاته وتدريبها ، وهذه يجب ان تكون الغاية من التعليم) (1) .

وقد اجاب الاستاذ هاكسلي في كتابه (التربية والعلم) بشيء من التهكم ، ينبيء عن مدى عدائه لنظرية التدريب العقلي التي دافع عنها (فوييه) والتي يعد العالم الانجليزي (جون لوك) واضعا لها في شكلها التاريخي القديم . فغاية التربية عند هذا الفيلسوف **« اعداد رجال مفكرين عاقلين يتمكنون من استعمال محاكماتهم الصحيحة في كافة المواضيع »** . ومن ثم كانت الرياضيات التي يعترف باهميتها في تدريب العقل ، وسيلة لاعداد المفكرين العاقلين . وليست بحال عنده وسيلة لاعداد رياضيين بارعين .

وبقيت روح التربية الترويضية مسيطرة على المدارس التهذيبية بالمانيا وانكلترا خلال القرون الاخيرة الثلاثة ، حتى تسنى للنزعة الطبيعية ان تبدو على يد مؤسسها الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) .

وكان في ظهور الفيلسوف الالماني جون فردريك هربارت (1776 — 1841) ثورة على علم النفس القديم القائل بتقسيم العقل الى قوى وملكات منفصلة . يقول هذا الفيلسوف في احد كتبه عن التربية والتعليم **(وجدت ان علم النفس المتداول في عصرنا مملوء بالاباطيل والخيالات ، وتحقق لدي اننا بحاجة ماسة لمبادىء حديثة في علم النفس ، تبني عليها طرقنا واساليبنا في التربية والتعليم »** فكان ان بنى هذه المبادىء على نقطة جوهرية تناقض مذهب الملكات الذي ساد قرونا طويلة ، واعتقد به كثير من الفلاسفة من يونان وعرب واوروبيين ، لقد اعتقد هربارت بان العقل البشري وحدة لا تتجزأ ، كما انه نظر الى النفس كوحدة ، ونفى وجود الملكات بالفطرة . وذهب الى ان نفس الطفل تولد خلوا من اي شيء . ولا تحتوي الا على قوة واحدة هي قوة الاختلاط بالمحيط بواسطة الجملة العصبية . وبفضل الاختلاط ينمو عقله ويتكامل بواسطة الادراك الحسي او الاطلاع . وبامتزاج اطلاعاته تنمو قوتا الحكم والمحاكمة .

لكننا نلاحظ ان علم النفس الحديث بالرغم من انه اصبح لا يعتقد بمذهب الملكات ، لا يزال يستعملها ، ولا يعني استعماله لها مجاراة الراي القديم بل انما يقصد التسامح والتسهيل .

ولعلنا نكون قد استطعنا رسم صورة تقريبية لمذهب الملكات وما نشأ عنه من اثر في توجيه التربية في بعض عصورها . واقوال مختلف العلماء فيه ، ويبقى علينا ان ناخذ صورة اخرى عن راي العلامة ابن خلدون في الملكات ، ومدى تاثره بمن سبقه من الفلاسفة ، ومدى ما في رايه من تجديد وابتداع ، واثر كل ذلك في آرائه التربوية .

والمطلع على المقدمة لا شك انه لاحظ ان ابن خلدون يذكر الملكة في كثير من المواطن ، فهو تارة يعمد الى تعريفها ، واحيانا يذكر مميزاتها ، واخرى يتعرض للاسس النفسية التي تنشأ عنها ملكة في علم ما ، ولكي يسهل علينا اخذ هذه الصورة ، نحاول ضم ما يتعلق بالملكة في مكان واحد ، بالرغم من انها وردت متفرقة في ابواب وفصول شتى من المقدمة .

فالملكة عنده صفة ذات اسس راسخة ، ومعاناة تنشأ عن عمل الفعل وتكراره مرات متعددة غير متباعدة الفترات حتى تصير صورة الفعل راسخة ، وتلقى هذا الفعل يقتضي احد سبيلين اثنين :

1) الملاحظة المباشرة . — 2) او التلقين .

وهو يؤكد ان الملكة الناشئة عن الملاحظة المباشرة (المعاينة) كما يسميها تكون أقوم من الملكة الناشئة عن التلقين ، وهو يرى ضرورة هذه الملاحظة المباشرة بالاخص في تعلم الصناعات التي لابد لها من العلم (2) .

ثم ان وجود الملكة تتوقف على مهارة المعلم واستعداد المتعلم وملكته ، فاذا كان المعلم او استعداد المتعلم قاصرا فسوف تكون الملكة حتما قاصرة .

---

1) نفس المصدر ص : 153 .
2) عن الفصل السادس عشر (في ان الصنائع لابد فيها من العلم) من الباب الرابع من المقدمة ، مع تصرف لا ينافي المعنى المقصود .

ويخشى ابن خلدون الا نفرق بين الملكة والفهم ، فيؤكد لنا ان الملكة شيء والفهم شيء آخر ، لان الفهم والوعي للمسائل شيء في متناول الجميع ، بما في ذلك العالم والجاهل ، والمبتدىء والضليع ، بينما لا تتيسر الملكة لغير العالم المتضلع (1) ، ثم ان الملكات جسمانية ، سواء كانت في البدن او الدماغ ، وهذا يعني انها محسوسة ، ولكونها كذلك تستدعي التعليم ، ولن يكون هذا التعليم متينا قويا الا اذا كان ماخوذا عن مشاهير المتخصصين في علم او صناعة ما ، لان الملكة اذا كانت جيدة تزيد من ذكاء صاحبها ، والملكة الجيدة لا تقتضي التعقيد والاختصار ، لانها ان كانت كذلك كانت ملكة قاصرة كما يحدث في دراسة المختصرات ، ومن ثم الح في ضرورة التبسيط والتطويل والبعد عن المختصرات في التعليم (2) ، والملكة صفة نامية بشرط ان تتغذى ، وتتشكل بحسب جودة الغذاء ورداءته ، وما اختلاف النفوس بالرغم من كونها في جزريتها واحدة بالنوع ، الا ما ينشأ عن نوع المدركات والملكات التي تطبعها وتصوغها، فتبدو من خارج ، في اطارها الفريد بعد اطوار من التدريج ، ثم ان الاطار النهائي للملكة ينشا عن المادة الخام لها ، فهناك ملكة الشعر مادتها حفظ الاشعار وملكة الكتابة مادتها حفظ الاسجاع والترسيل ، والملكة العلمية مادتها العلوم والادراكات والابحاث والانظار العلمية ، انه باختصار يقصد ملكة للشعر ، وملكة للنثر الفني ، وملكة للعلم ، وملكة للفقه، وملكة للتصوف وقس على ذلك ، وهذه كلها تنشا كل واحدة منها عما اضيفت اليه ، وجودتها او رداءتها تاتيان من جودة او رداءة المادة نفسها .

وينتزع ابن خلدون المثال من نفسه ، حيث يذكر انه حدث صديقه ابن الخطيب بانه (اي ابن خلدون) يجد صعوبة في نظم الشعر ، رغم انه يحفظ كثيرا من جيد الكلام ، ثم يعزو ذلك الى ان حفظه هذا كان مسبوقا بحفظ القوانين العلمية ، فكان هذا خدشا لما حفظ من جيد الكلام ، ويجيبه ابن الخطيب : **(لله انت ، وهل يقول هذا الا مثلك ؟) .**

ثم ان النفس بعد اتخاذها اطار ولون ملكة ما ، تكون قد تشكلت وتلونت ، ولا يمكن — الا في القليل النادر — ان تتخذ اطار ولون ملكة اخرى ، وهو يستبطن جذور المسالة فيفترض ان هناك من يعترض ، فيحترز بأن ذلك لا يقع الا اذا كانت الملكة الاولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها ، اي لم تتخذ اطارها ولونها النهائيين .

فالخياط الذي يجيد — اذا اجاد — الخياطة ورسخت في نفسه ، فلن يستطيع ان يجيد من بعدها ملكة النجارة او البناء او غيرها ، هذا « **لان الملكات صفات للنفس والوان ، فلا تزدحم دفعة ، ومن كان على الفطرة كان اسهل لقبول الملكات واحسن استعدادا لحصولها ، فاذا تلونت النفس بالملكة الاخرى وخرجت عن الفطرة ، ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة ، فكان قبولها للملكة الاخرى اضعف ، وهذا بين يشهد له الوجود** » (3) وليس هذا في الصنائع فحسب بل حتى في العلوم ، وهو يسمى ، او على الاصح ، يصف ملكة اهل العلم بالفكرية ، فالملكة اذن اما فكرية لاهل العلم ، واما عقلية لاهل الصنائع ، يدل هذا قوله كما راينا قبل **(سواء كانت في البدن او الدماغ)** وسنرى فيما بعد مدى صحة هذا الراي .

ويلح ابن خلدون كثيرا في اهمية التكرار لتكوين الملكة ، فيذكر ذلك في اماكن مختلفة ، وفي احدها (في ان اللغة ملكة صناعية) يوضح سبب ذلك ، لان الفعل الذي يقع اول الامر تعود عنه صفة للذات ، فاذا تكرر الفعل بعد ذلك كان حالا ، بمعنى انها صفة غير راسخة، فاذا تلا هذه الحال تكرار آخر نشأ عن ذلك تمام تكوين الملكة اي الصفة الراسخة . ويبدو اننا اخذنا صورة تكاد تكون مستكملة الخطوط للملكة في راي ابن خلدون.

وعلينا بعد هذا ان نتساءل ما هي النقط التي يتفق ابن خلدون فيها مع ما يذهب اليه القائلون بمذهب الملكات ؟ وفيم يخالفهم من ذلك ؟ والى اي حد كان تأثر آرائه التربوية بنظريته في الملكات؟ وما موقف علم النفس الحديث من مذهب الملكات على العموم ؟ .

ولا بد قبل الاجابة عن هذه الاسئلة ، من الاشارة الى ملاحظة هامة ، وهي ان القدماء كانوا يجعلون الملكات صفات للنفس ، ومن ثم كنا نرى ابن خلدون يجاريهم في ذلك ويقسمها الى ملكات عقلية وملكات فكرية .

بينما نرى المفكرين الاوروبيين امثال (هملتون) (ولايبنتز) (ولوك) يقصرون الملكات على العقل ، ويقولون بانها نوع من الادراك ينشا عن العمل العقلي .

اذن فابن خلدون هنا يلتقي مع اولئك وهؤلاء (سواء كانت في البدن او الدماغ) يتفق مع اولئك فيقول بالملكات النفسية وفي نطاقها الملكات العقلية ، ويتفق مع هؤلاء ، فيقول : ملكة الحساب ، وملكة اللغة ، وملكة الشعر ، كما يقول فرويل ملكة الكلام وغيرها .

---

1) الفصل الثاني (في ان التعليم للعلم من جملة الصنائع) من الباب السادس .
2) الفصل التاسع والعشرون (في ان الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم) لا اشير الى الصفحة لان المقدمة مطبوعة في طبعات متعددة ومختلفة ، واذكر القارىء الكريم باني اعتمد على طبعة دار الكتاب اللبناني .
3) الفصل (22) فيمن حصلت له ملكة في صناعة نقل اي يجيد بعدها ملكة في اخرى .

ونستطيع ان ندرك ان ابن خلدون يرى ان الملكات تكتسب . **(ومن كان على الفطرة كان اسهل لقبول الملكات واحسن استعداد لحصولها)** اذن فهو هنا يغفل النزوع الفطري . ولعل هذا يرجع الى ما عرف عن الغزالي الذي يقول بان الطفل صفحة بيضاء . ولا نعدم مثل هذا الراي عند (لوك) وحتى (فردريك هربارت) وهو راي ينافي اساسين اثنين لهما اعتبارهما في علم النفس الحديث ، هما الغرائز ، والوراثة . ومن المعلوم ان لهما اثرا في توجيه الطفل وتحديد نوع العمل الذي يبرز فيه . وهذا هو السر في اننا نرى كثيرا من الاطفال يبدو عليهم نقص واضح في المسائل الفكرية والمعلومات النظرية ، فاذا القينا بهم في مضمار الاعمال اليدوية رأينا عجبا ، رأيناهم يبدون كثيرا من الحذق والمهارة ، في حين ان زملاءهم من المبرزين في الاعمال الفكرية لا يبدو منهم اتقان ، ولا يحسنون فعل كثير من الاعمال البسيطة . وتفسير ذلك ان الغرائز اساس الميول التي هي في اساسها ثلاثة :

1) ادراكية . ـ 2) وجدانية . ـ 3) عملية .

فبتغلب ناحية الادراك يكون الميل ادراكيا ، كشغف الانسان بجمع الحقائق ، واصل هذا الميل غريزة حب الاطلاع .

وبتغلب ناحية الوجدان يكون الميل وجدانيا كشغف الفنان بفنه ، ويمكن ارجاعه الى غريزة حب الجمال .

وبتغلب ناحية النزوع او الارادة يكون الميل عمليا ، كالاقبال على الصناعات العملية ، او الاعمال الآلية المعمارية ، او الحربية ، او الاعمال الرياضية (1) ، ويرجع هذا الى مجموعة من الغرائز .

ومن ثم ذهب بعض المفكرين من المحدثين الى ان الملكات هبات موروثة لاتكتسب ولا تعلم ، فالذي وهب ملكة الحفظ يكون حافظا ، والذي وهب ملكة الذكر يكون ذكورا ، والذي وهب ملكة التخيل يكون شاعرا او قصاصا او اديبا .

وقد راينا ان ابن خلدون يرى ان قوة ملكة لا تقوي الاخرى ، اما بعضهم فيرى ان تقوية ملكة في ناحية يقويها في باقي النواحي ويقوي غيرها معها ، وقد راينا ذلك عند انصار نظرية الترويض العقلي .

ولعل من الطريف ان نذكر ان العلامة (توورندايك) على راي ابن خلدون ، فلقد قام بتجارب خرج منها بنتيجة ان الملكة الواحدة قد تقوى في فرع من ناحية ثم لا تقوى في اشباه هذا الفرع ، مع العلم بان هذا الاخير ـ شان علماء النفس المحدثين ـ انما يطلق الملكة للتساهل والايضاح لا مجاراة للراي القديم ، اذ الثابت ان كل الاعمال الفكرية ما هي الا مظاهر مختلفة للعقل يتاثر بعضها ببعض . ومن ثم ذهب بعضهم الى انه لا يصعب على شخص ان يجيد صناعتين او علمين في آن واحد ، او في وقت واحد ، بينما نرى ابن خلدون يصر على ان هذه الاجادة لا يعقل ان توجد على مقياس واحد ، وبدون تفاوت في اجادة احد العلمين او الصناعتين اكثر من العلم الآخر او الصناعة الاخرى ، وحتى اذا امكن ذلك فعلى قلة **(فقل ان يجيد بعدها ملكة في اخرى)** .

والواقع ان التجربة تدل على ان ابن خلدون لا يجافي الصواب هنا ، فالكثير الغالب ان يبرع الشخص في ناحية ، فالبحتري والمتنبي وابو نواس برعوا في الشعر وحده ، وابن زيدون شاعر اعظم منه كاتبا ، و (شوبر) الموسيقي العبقري كان لا يحسن غير الموسيقى ، واعظم رياضي في عهد نابليون (لابلاس) اخفق اخفاقا ذريعا في العمل الذي وليه .

وماذا نقول في المفكر العظيم (نيوتن) الذي اخطأ خطأ يدعو الى الضحك حينما فتح ثغرتين ، كبيرة وصغيرة ، في بيته لقطتين عزيزتين عليه ، بعد ان فكر في طريقة تسهل عليهما الدخول والخروج بغير ان يقوم ليفتح لهما الباب ، واخيرا ادرك خطاه واكتفى بالثغرة الكبرى لانها تصلح لهما على التوالي ؟ .

لقد رأينا في بحث (التربية عند ابن خلدون) انه يتبنى نظرية ابن العربي القائلة بـ **(الا يخلط على المتعلم علمان معا)** ورأينا كيف انه تصدى للدفاع عنها ووصفها بانها من المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم ، وقد اشرنا الى ان منشأ النظرية يعود الى مذهب الملكات . ويتأتى لنا هنا ان نوضح هذه الدعوى ، فبما ان الملكات صفات والوان للنفس لا تتزاحم ، لزم ان يقتصر على علم واحد ، حتى لا يخدش ملكته الناشئة شيء يطعن في جودتها ، كما اخبرنا ان ملكته الشعرية خدشها محفوظه من القوانين العلمية ، ولا يجب ان يتبادر الى الذهن انه يدعو الى الا يعلم الشخص في حياته غير علم واحد يقتصر عليه دون سواه ، فان ذلك مما لم يقصده علامتنا ، لانه ليس من الغفلة بحيث ينسى ان العلوم يتوقف بعضها على بعض ، يدلنا على ذلك تقسيمه للعلوم الى : 1) آلية . 2) ومقصودة بالذات كما راينا ، فدارس الآدب او الحديث او الفقه او غيرها ، لا يتأتى له ذلك الا اذا درس اللغة التي بها يستعد لتلقي علمه الذي يريد التخصص فيه ، وهو اذا درسهما معا في آن واحد ، فان فكره سوف يكون مقسما بين علمين ، وسوف لا يستطيع ان يبرز في احدهما . ولذلك ، ينصح بعدم التوسع في العلوم الآلية **(اذ المقصود منها ما هي**

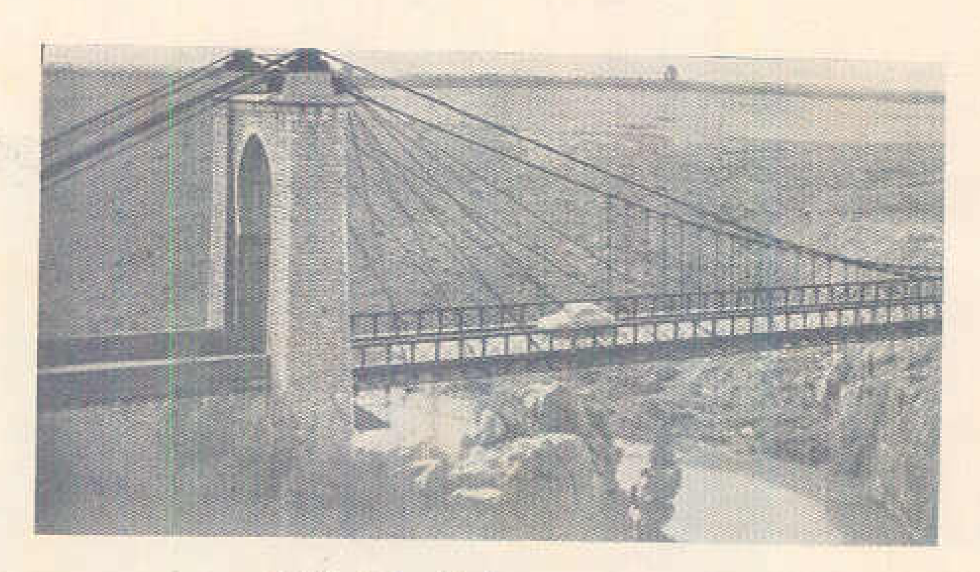
---

1) راجع كتاب (في علم النفس) لحامد عبد القادر وعطية الابراشي ومحمد مظهر سعيد ج 1 ص 103 .

آلة له لا غير) فهو على هذا يرى ان يدرس العلوم الآلية ما يكفي لتلقي احدالعلوم المقصودة بالذات، التي تستحق الدراسة الطويلة والتبحر فيها للحصول على ملكتها ، فكأنه يقصد بتكوين الملكة فى علم ما التخصص فيه . بعد ان يكون قد استعد له بالاخذ من العلوم التي يتوقف عليها ميدان تخصصه الذي يجب الا يخلط معه غيره فى آن واحد .

ثم ان المراحل الثلاث للتعليم التي يسميها تكرارات نستطيع ان نجد لها اساسا فى نظرية الملكة عنده ، فالمرحلة الاولى تكون صفة ، والمرحلة الثانية تكون حالا، والمرحلة الثالثة هي التي تكون فى النهاية الملكة التي هي صفة راسخة .

اما وقد عرفنا بعض آراء القدامي والمحدثين فى الملكات فمن المهم ان نذكر السبب فى ان علماء النفس المحدثين اصبحوا لا يطمئنون الى مذهب الملكات ، ذلك لانهم ادركوا بعد طول التجربة ان الحياة العقلية حياة متصلة الاجزاء ، متينة الارتباط ، فلا تمر بخاطرك فكرة ـ مهما كان نوعها ـ الا لسبب ظاهر او خفي او داع يدعوها ، ومجموع الاعمال العقلية ان تعتبر مع ذلك وحدة لها نواح متعددة ، واجزاء متصلة تمام الاتصال ، مترابطة تمام الترابط ، وهذا بالطبع غير ما اعتقد قديما من ان للعقل ملكات يتفصل بعضها عن بعض .



وادي « ايكم » بين الرباط والدار البيضاء



للاستاذ : الفريد البستاني

كان ــ ولا يزال ــ ولع الناس في المغرب **(بالطبوع)** الاندلسية كبيرا جدا ، ــ فهي سلوة الانفاس وقوت الارواح ، وبهجة المجالس والافراح ــ يقبل القوم عليها ويتهافتون على سماعها بشغف ، ويتلذذون بانغامها ويتناشدون ادوارها وموازينها و ((**صنائعها**)) بما فيها من موشحات وازجال ، وتوشيات واقفال ، فيسبحون في سماء فنها الساحر ، ويرافقون الحانها بحركات موقعة ، وبنقرات خفيفة ، واصوات منخفضة شجية ، تجعل منهم رفقاء المغنيين والموقعين بدون ان يشعروا احيانا ، وينظمون على منوالها في بعض الظروف بكلام يوافق المقام .



جوق القسم العربي لمعهد الموسيقى بتطوان

غير ان هذا الولع اخذ يخف شيئا فشيئا منذ اوائل الربع الثاني من القرن الحالي ، فقد غزت الموسيقى الشرقية ــ واخص منها المصرية المتاثرة بالاوربية الحديثة ــ البيئات الاجتماعية المغربية عن طريق الاثير والاشرطة السينمائية ، فكان مفعولها شديد الاثر بين جميع طبقات الشعب ، فدخلت البيوت والاندية والمجتمعات العامة وانتشرت انتشارا عظيما ، خصوصا بين النشء الجديد وربات الخدور ، فاقبلوا عليها لخفتها وسهولة التقاطها وانطباعها في الذهن .

فاهملت الموسيقى الاندلسية السامية ، وظهرت في سمائها اخطار اخذت تهدد كيانها ، فخاف هواة الفن وانصاره على ((**الآلة**)) من الضياع ، وفقد هذا التراث الفني الثمين الذي ورثوه عن اجداد كرام وحافظوا عليه جيلا بعد جيل .

فقام فريق من الغير على الموسيقى الاندلسية يدافعون عنها ويناضلون في سبيل احيائها ، واخذوا يعقدون الحلقات ويؤلفون الاجواق ويقيمون الحفلات ويتباحثون في الطبوع والموازين، « والصنائع » والالحان ، ويجتهدون في ضبطها وتذليل صعابها بالدرس والتمرين ويعملون على لم شعث ماتفرق منها وجمع ما تشتت من اصولها وفروعها .

فكانت هذه المجالس والاندية الفنية مع الاجواق المختارة ، النواة الاساسية والعامل الفعال لانشاء مدرسة موسيقية في تطوان ، غايتها : احياء الفن الاندلسي والمحافظة عليه ، فلاقت هذه المدرسة تشجيعا كبيرا من انصار الفن ومساعدات قيمة من السلطات، واثمرت بثمار طيبة، ثم توسعت الفكرة بانشاء قسم الابحاث الموسيقية فكان هدفه الاساسي : البحث والدرس والتنقيب ، وجمع ما تفرق من الطبوع ، والحاق بالاصول الفروع ، ودراسة ما دخل عليها من تعديلات وزيادات وجمع ما تشتت من امهات الالحان والانغام ، وتسجيلها وضبطها بالنوطة ، وذلك محافظة على « الآلة » وصيانتها من الضياع مع مرور الزمن .

وقد كان قديما يفاخر الموسيقي بانه يحسن توقيع صنعة اندلسية من نوبة ما ، يجهلها بقية المغنين ولا يعرف ميزانها الا هو وحده ، فيحفظها في صدره ويبخل بها على رفقائه . فيموت « الفنان » ويدفن معه سر الصنعة والميزان .

فامام هذا الخطر المحدق «بالآلة» قام الى جنب الاجواق فريق من انصارها وهواتها — من اشهر الموسيقيين الاروبيين — بالتنقيب والبحث عن مصادر جمال الموسيقى الاندلسية واصولها وفروعها ومشتقاتها وعمق غورها واتساع بحرها ، ودرس مصطلحاتها واسرارها وتسجيلها .

وقد كان المسيقي الاسباني المشهور السنيور « بوستيلو » يقوم منذ ربع قرن بدراسات جدية حول هذا الموضوع ، فجمع كثيرا من الطبوع والانغام التي كانت متفرقة ، وسجل البعض منها بالنوطة ووضع جدولا بالصنائع والموازين والالحان المفقودة، وحث ارباب الفن على الاجتهاد في البحث عنها . غير انه مع الاسف لم تنشر ابحاث هذا الموسيقي العالم ، اذا استثنينا منها بعض مقالات متفرقة وتقارير رسمية رفعت في ذلك العهد الى السلطات المختصة .

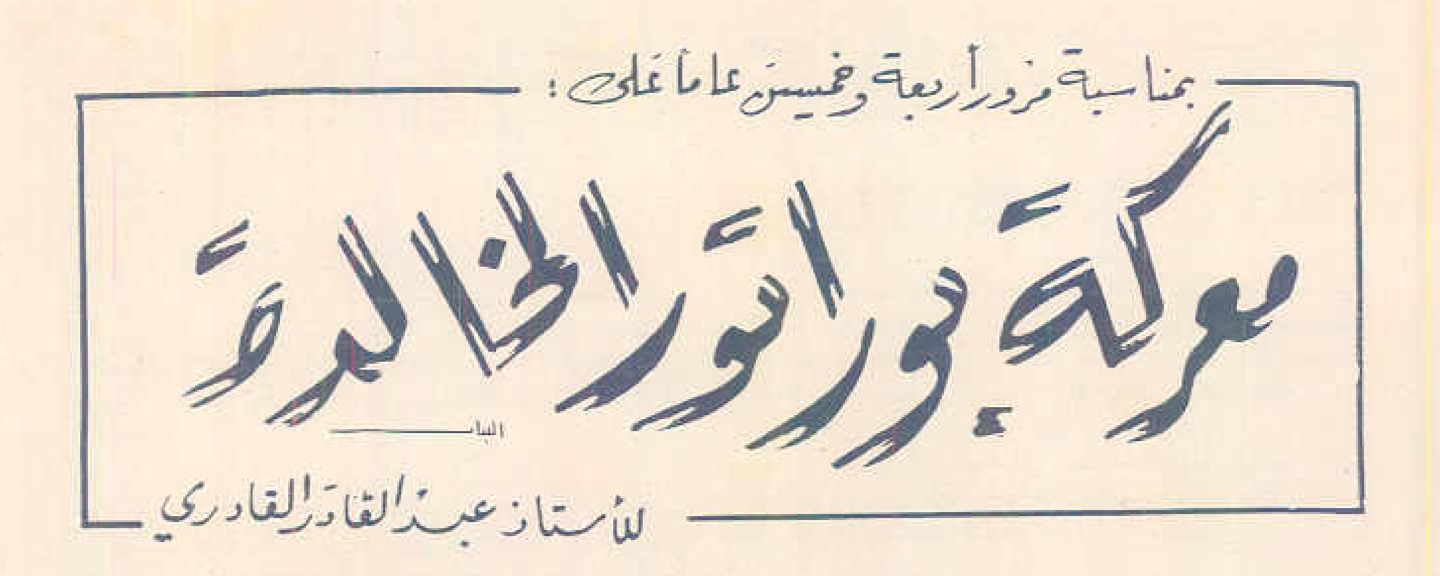
ثم برز العالم الموسيقي الفرنسي المشهور « الكسي شوطان » بابحاثه الدقيقة ونشر مع النوطة « ميزان البسيط » من نوبة العشاق ، وجدولا قيما في الموسيقى المغربية ، فكان عمله هذا مساهمة فعالة في دراسات الموسيقى الاندلسية . وكان قبل ذلك قد نشر العلامة الاسباني المعروف والمستشرق الجليل (ضون خوليان ريبيرا) ابحاثه القيمة في الموسيقى العربية والاندلسية، وكذلك العلامة الفرنسي المشهور « البارون رودولف درلانجه » قد نشر ابحاثا دقيقة ودراسات قيمة في الموضوع وقد سلك طريقة بعض العلماء الباحثين وطرقوا بدراساتهم الدقيقة هذا الموضوع ، منهم العلامة « جيل روانه » فقد نشر عدة ابحاث في دائرة المعارف الموسيقية « لافينياك » حول الموسيقى العربية والافريقية والاندلسية ، ونشر ايضا العلامة الانجليزي « جورج فارمر » عدة ابحاث في هذا الموضوع .

ثم جاء حضرة البحاثة الفاضل ، العالم الفرنسيسكاني المحترم (الاب باتروسينيو غرسيا) ، وساهم مساهمة فعالة في دراسات الموسيقى الاندلسية ، فحقق ونقب وضبط بعض طبوعها بالنوطة مع تعليقات وشروح وافية ، ونشر سنة 1941 كتابه المشهور **« الموسيقى الاسبانية الاسلامية بالمغرب »** وكان قد شارك قبل هذا التاريخ في المؤتمر الاول للموسيقى المغربية المنعقد بفاس من 6 الى 10 ماي سنة 1939 ، ونشر كتابه **« صدى المغرب »** ولا يزال حضرة (الاب باتروسينيو) يواصل بنشاط ابحاثه في هذا الميدان ، ثم قام حضرة الموسيقي العالم والبحاثة المعروف (ضون اركاديو دي لاريا بالاثين) بدراسات وابحاث واسعة النطاق استغرقت عدة سنوات جمع في خلالها كثيرا من درر كنوز هذا الفن وسجل قسما منها بالنوطة بعد درسها وتنسيقها ومقابلتها بالموسيقى الاروبية ، ولا يزال هذا البحاثة يتابع ابحاثه بهمة لا تعرف الملل ، فقد وجد اثناء دراسته الموسيقى الاندلسية — كما صرح لنا — بحرا عظيما من الفن السامي ، عميق القرار ، متشعب التيارات متماسك الدائرات ، متفرع الشعاب والاحواض ، غير انها تصب جميعها في محيط واحد كبير منسجم ، يحتاج الباحث فيه والخائض في لججه الى سنوات عديدة للوصول الى اعماقه ودرس قيمة جواهره وتمييز درره والاستفادة من كنوزه وتذوق فنونه .

فان الموسيقى الاندلسية — وهي غنية جدا بالحانها وانغامها ، منسجمة التاليف — تدل على نضوج فني عظيم نتيجة مجهودات واعمال عدة قرون حتى وصلت الى ما وصلت اليه من دقة ومرونة وكمال ؛ فهي طويلة النفس ، محكمة الحلقات ، متناسقة الموازين، دقيقة الصنائع ، متماسكة الانغام ، لطيفة الوقع والتاثير على من يتذوقها ويدرك اسرار جمالها .

وانه لينذر ان نجد معزوفات اروبية مهما سمت في الفن ان تحكيها او تجاريها في طول النفس واتساع المجال الفني ودقة التركيب والاوزان ، فان اقرب المعزوفات اليها « السونيت » من حيث تعدد اقسامها وتنوع انغامها والحانها ، غير انها لا تجاريها في وحدة التاليف ولحمة الانغام وطول النفس الموسيقي واتساع المجال الفني ، فكل نوبة اندلسية هي معزوفة تامة قائمة بذاتها ، ومؤلف فني كامل الفصول والاجزاء، تام الالحان والانغام بجميع مقدماتها وتواليها ، وتوشياتها واقفالها وخرجاتها ، لا يدرك سر جمالها وروعتها الا من تعمق في دراستها وتبحر في فنونها ، فقد بهرت بغناها اساتذة الفن من الباحثين الاروبيين الذين اقبلوا على دراستها بتعمق ، حيث اظهروا اعجابهم بها وبسمو روعتها ولطف الحانها التي نضجت في وقت كانت فيه الموسيقى الاروبية عبارة عن مواد خامة متراكمة بدون صقل وتنظيم ، اذا استثنينا من ذلك بعض قطع واناشيد غريغورية قبل ان تتاثر بالمسيقى السكونية ، وذلك قبل النهضة الموسيقية الاروبية بكثير .

وقد صرح لي احد اقطاب هذا الفن بعد ان درس « الآلة » وفنها واسرارها عدة سنوات ، قائلا : انني ابتدات الآن افهم واتذوق الموسقى الاندلسية ، وكل يوم يزداد شغفي بها ، وكل بحث اقوم به في هذا الميدان يظهر لي درة جديدة من درر كنوز فنونها الرائعة .



ظهر القرن العشرون والشرق يغط فى سبات عميق . حيث جل اقطاره كانت وقتذاك ترزح تحت نير الاستعمار الاروبي الغاشم ، فيما عدا تركيا التى كانوا يلقبونها بالرجل المريض ، واليابان التي كانت منكمشة على نفسها .

وفجاة نشبت الحرب فى ببراير سنة 1904 بين روسيا القيصرية واليابان ، فتعاقبت ايام تلك الحرب سراعا ، وحل اليوم الثامن من شهر ببراير عام 1904 واذا اليابانيون يضربون ضربتهم الحاسمة المباغتة .

فقد هاجم الاسطول الياباني بقيادة الاميرال ـ هوجو ـ الاسطول الروسي المرابط آمنا مطمئنا فى ميناء بور آتور الواقعة فى شرق آسيا ... وفى اليوم التالي نزلت فرقة يابانية كاملة الى ميناء ـ شيلفو ـ عاصمة كوريا فى ذلك الوقت ! ...

ولم يخطر ببال القيادة الروسية ان اليابان غيرت خططها الحربية ـ المعروفة للروس ـ بمثل هذه السرعة ... ولهذا مضت القيادة العليا الروسية فى تنفيذ خطط الدفاع والهجوم على نطاق واسع فكانت النتيجة ان جيوش القيصر منيت باندحار ساحق ، فتراجعت تلوذ بالفرار عبر الاراضي الكورية ، وفى نفس الوقت كانت تدور بين الاسطولين الروسي والياباني معركة بحرية هائلة ، كان لها اثر جلي فى نتيجة الحرب الروسية اليابانية التي وقعت فى ببراير سنة 1904 ، ذلك انه لم تمض ثلاثة ايام على هجوم الاسطول الياباني على الاسطول الروسي المرابط بميناء بور آتور ، حتى سحقت اكثر القطع الروسية وما بقي منها فر والتجا الى جزيرة سخالين التابعة لروسيا .

وبعد هذه المعركة البحرية الفاصلة فى تاريخ الشعب الياباني ، استطاع هذا الشعب العظيم ـ بقيادة امبراطوره ـ فى غضون سنوات قليلة ، ان ينهض نهضة سريعة ، فيصبح فى مصاف الدول الراقية ، ولولا القنبلة الذرية الاميريكية التي القيت عليه سنة 1946 لما استطاعت امريكا وروسيا وفرنسا وانجلترا معا قهر اليابان .

ومما هو جدير بالملاحظة ، ان روسيا السوفياتية لم تتجاسر فى الحرب العالمية الاخيرة على شن الحرب على اليابان ، الا بعد القاء الاميريكان القنبلة الذرية على هيروشيما فى 6 غشت سنة 1946 وطلب اليابان الصلح بدون قيد ولا شرط ، حيث وجدت روسيا الفرصة سانحة اذ ذاك لتأخذ بثارها من اليابان التي هزمتها فى ببراير سنة 1904 ولتغسل العار الذي لحقها فى معركة بور آتور ، ومع ذلك فيعتبر المعلقون الحربيون معركة بور آتور من المعارك الفاصلة فى تاريخ الشعوب .

وقد اشاد المرحوم الشاعر حافظ ابراهيم بالشجاعة التي ظهرت بها امة اليابان فى الحرب بينها وبين روسيا سنة 1904 فقال فى قصيدة له دعاها غادة اليابان ضمنها غرامه بغادة يابانية :

لا تلم كفى اذا السيف نبا — صح مني العزم والدهر ابى
رب ساع مبصر فى سعيه — اخطأ التوفيق فيما طلبا

كنت اهوى فى زماني غـادة ... وهب الله لها مـا وهبـا
ذات وجه مزج الحسن بـه ... صفرة تنسي اليهود الذهبـا
حملت لي ذات يوم نبـأ ... لا رعاك الله يا ذا النبـا
واتت تخطر والليل فـتى ... وهلال الافق فى الافق حبـا
ثم قالت لي بثغر باسـم ... نظم الدر بـه والحببـا

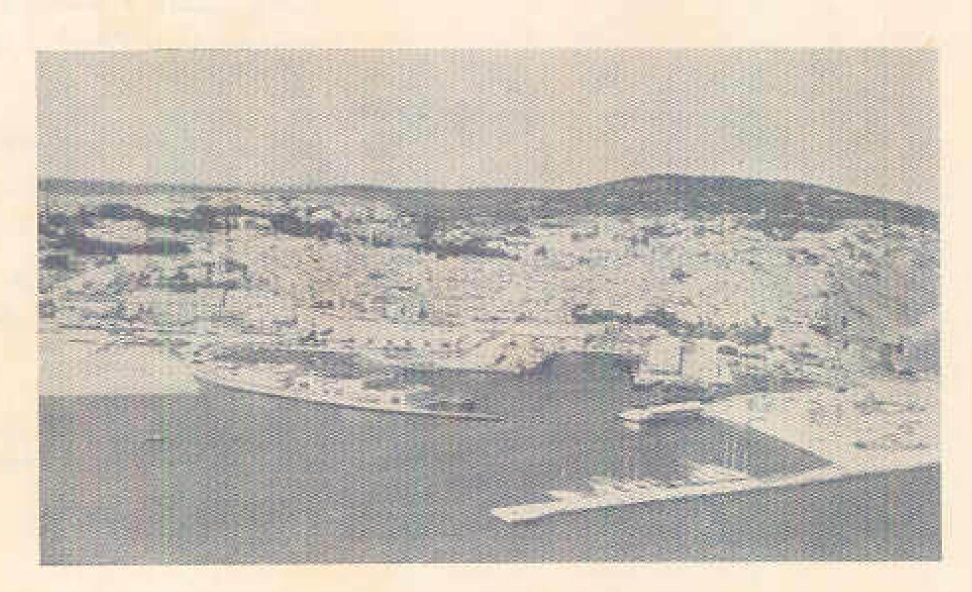
*

تذبح الدب وتفري جلـده ... ايظن الدب الا يغلبـا ؟
قلت والآلام تفري مهجتـي : ... ويك ! ما تصنع فى الحرب الظبا ؟

*

انـا يابانيـة لا انثنـي ... عن مرادي او اذوق العطبـا
انا ان لم احسن الرمـي ولم ... تستطع كفاي تقليب الظبـا
اخدم الجرحى واقضي حقهم ... واواسي فى الوغى من نكبـا
هكذا الميكـاد قد علمنـا ... ان نرى الاوطـان امـا وابـا
ملـك يكفيـك منـه انـه ... انهض الشرق فهـز المغربـا
واذا مـا رسته الفيتـه ... حولا فى كل امر قلبـا
كان والتاج صغيرين معـا ... وجلال الملك فى مهد الصبـا
فغدا هـذا سماء للعلـى ... وغدا ذلـك فيهـا كوكبـا
بعث الامـة مـن مرقدهـا ... ودعاهـا للعـلا ان تدأبـا
فسمت للمجـد تبغي شأوه ... وقضت من كل شيء مأربـا

حقا ان معركة بور آتور انهضت الشرق فهز المغرب ، ومحت خرافة ان قوة الغرب لا تقهر .



طنجة ، عروس المغرب

يوم أبصرتها

للاستاذ محمد الحلوي

شاب رأسي من جور دهر عنيد
وابتلاني فرث منه جديدي

مخضتني الايام حتى تبدى
زبدي منذرا بشر وعيد

لون هذا الشيب يغض لي النور
فاولعت بالظلام المديد !

بكرت في فودي تسعى هواد
يه وتمشي مشي الضعيف الوئيد

برزت وحدها تطل بوجه
أبيض في ظلام ليل شديد

يوم ابصرتها وميضا على المر
آة يعشى ، أبصرت شر وليد

فلها فوق رأسي جولا
ت انتصار في كل فجر جديد

ما عسى تفعل اليدان بشيب
قد تحدى ويلاه كل مبيد



خصني من خطوبه بكؤوس
وسقاني بها فتور عودي

وضعته على المفارق تاجا
وتفننت له بشر تشييد

واراني الحياة اقصر من ليل
واوفى بي على ظلام اللحود

تنقل الخطو في وناء وتسرى
سريان اللهيب بين الوقود

كالعروس الشقراء ترفل في النور
جلتها ايدي مواشط سود

هبطت في سواد راسي نبيا
ينشر النور والهدى في الوجود

كم تمشت يداي بين ثنايا
ها تمشي المروع الرعديد

لو كساه الخضاب لونا معارا
فخدعت العيون بالتسويد

فبماذا ترى اخادع نفسي
عن شباب مزيف مؤود !

يوم ابصرتها رميت بكاسي
وخلعت الهوى وكسرت عودي

فتلفت للوراء عساني
امتع الطرف بالشباب الفقيد

غربت في مغيبها فتوارت
معها ذكريات عهد حميد

والاماني العذاب تفتر كالزهر
وتفري ببارقات الوعود ؟

يوم ابصرتها براسي ودعت
شبابي ولذتي ونشيدي

فاذا جف ماؤه وتولى
عنك اصبحت بعده كالفقيد

فتفشت كأنما تتحدى
كبريائي انا وبأس الحديد

أعرضت اذ رات بياضا براسي
ذات حسن وامعنت في صدودي

يا مجالي الشباب لاردك الله
ويا بهجة الصبا لا تعودي

كلنا في الحياة يتهم الشيب
ويبكي على الشباب الحميد

يوم ابصرتها نظمت رثائي

ومصاب المشيب في المهد شر
عجلته الايام للمولود

روعتني مواكب الشيب تسعى
زاحفات بخافقات البنود

فتراءت اطيافه غارقات
في سناها وراء افق بعيد

اين مني رؤاه تطفح بالبشر
وتزهو على ندى الورود ؟

اين مني نضارة العمر الـز
هي وعهدي محررا من قيودي ؟

وشباب الحياة اجمل ما نمنح
فيها عن حبنا للخلود

يوم ابصرتها دلفت اليها
بمقص احالها كالحصيد

فكأني قصفت منها فتيلا
عام بالقصف في ضياء جديد

انكرتني والغيد يكفرن بالحب
ولا يحترمن ماضي العهود

فانا ما نعمت في فجر ايامي
ولا في ليلها بقلب ودود

ما انتفاعي بالسود من شعراتي
في ضباب من المآسي السود

بدموع سكبتها في قصيدي





حباب من هواء ينقسم ويتناثر على سعاف الشمس ، وعرق الليالي يتصبب حافيا على سواعد القمر العالي .

وفي البحر سلاسل مشدودة في الرواسي تجذب اكواما من الملح العتيق، على نواحي عذراء تلطم خدها وهي محفوفة بظلال السنين .

❋

كل شيء ينتظر الانعتاق . اما السماء فكانها امواج من صراخ تمشي على آفاق مزروعة بالاشواك .

❋

مدت الارض يدها الى السماء وهي في سبات عميق قديم . فمزقت من صدرها قطعا من الغمام، ومسحت به عينها، فرأت حولها جداول وانهارا تسعى للجريان .

لم يكن النور يعرف سر الظلال . فقد كان يشعر ابدا بحرارة شديدة في قلبه وفي ظهيرة متكسرة الاشعة ، ارتقى الى قمة جبل ، وما ان اطل بجسمه على هذه القمة ، حتى هوى. وبينما هو في طريقه راى ظله ملتصقا بالارض فتشتت شظايا يزرع بذور الشمس .

❋

اما الجمال فقد كان يلهث رضيعا تحت اقدام الغزال .

اما الحب : فقلب فراشة مدفون في الثلوج ، او كعرق السراب يرشح ماء حلوا رقيقا .

❋

كم تمنى السهاد ان يظل طول حياته مستيقظا ، خيفة من ان تحلم زهرات الدفلى انها ورود .

ويقول الماء للصخر في الصحراء : مهلا مهلا . غدا سانبثق منك ، فينبثق مني الغمام ، وتتفجر من الغمام الرياض .

ويزيد قائلا :
من جوفك ايها الصخر ستجنح العصافير مبشرة باليوم الجديد .

انت معدن الجبال والسهول والاودية .

انت احلام الربيع وعرش الفراش وشال القمر .

انت سر المناجم وبذرة المنخفضات والمرتفعات .

❋

منذ الوف السنين وبينما كنت متجولا في السهول سمعت حديثك مع الغبار ، وانت بعد ذرة حقيرة تتوسد على سواعد آبائك واجدادك ؛ اشقاء السماء ومرافيء النجوم .

❋

سمعت هذا نجمة رضيعة عمرها شفق وليلتان ، فابتسمت وثغرها يتقطر لبنا . وقالت في نفسها :

ترى متى تكبر اسناني ؟ متى اصبح مرآة لاصداف البحور ؟ متى امشط جدائلي فتجمع بنات الليل جواهري . وسبحت في السماء تتغذى من زرقتها ، وتبرى اطرافها على سندان اثيرها .

❋

تثاءبت الارض ، فبسطت يديها ورجليها في الضفاف ، وابتسمت للذيذ الاحلام .

تطوان محمد الصباغ

إقبال شاعر الخلود

للأستاذ : محمد حمود

عشقت منذ ان كنت حدثا فكرة الخلود ، وكنت مسرفا بالغ الاسراف متطرفا بالغ التطرف في ذلك العشق ، ولم يكن لدي في حداثتي من دافع لهذا العشق سوى تلك التربية التي نشانا عليها جميعا ، وكانت تغذينا من لبان الدين ، وترضعنا من ثديه الثرين ، فتغدق على ارواحنا من معين الخلود ما يشفي الغلة ويروي الظما ، فنعود بعد ان نصلي ونتحنث قسطا من الليل واطراف النهار ، ثملين بما جنيناه من الصلاة والتحنث ، وما الذ ما نجني ! انه ذلك الاتصال الروحي بمن ابدع الكون ، فكان الخلود من امتع واروع الصور في هذا الكون ، خلود روح الانسان وما تحمل وتتقمص من قيم انسانية مثلى .

ولم يكن التعبير القويم عن هاته الفكرة بسهل ، وكان كل ما كتب عنها او ما سيكتب في موضوعها انما هو نقوش ورسوم ، مهما كان وضوحها بارزا ومهما كانت ظلالها جميلة وابعادها منسقة ، فلن تبلغ شاو الفكرة نفسها ، اذ تظل هذه مثلا اعلى يحاول الشاعر او الرسام ان يدنو من قمتها ولو دنوا يسيرا .

ولكنا على كل حال نجد المتعة في هذا الطموح الى الخلود عند الصادقين من الشعراء والرسامين ، كما كنا نحس باننا نرضي حاجة الخلود في نفوسنا حين نصلي ونتحنث .

ولست بعيدا عن الحقيقة ولا من الواقع ، حين اقول بان اقبال من شعراء الخلود ، تلمس ذلك بكل حواسك حين تخلو الى بعض قطع من شعره ، ترنم بها وترتلها في خشوع كما كان يرتلها اقبال مبتهلا مصليا ، ويرتلها حتى عصرنا وحتى الابد مبتهلون كثيرون ، جمعتهم فكرة الخلود بعد ان كانوا اشتاتا مختلفين في لغتهم وجنسهم ، فحين يقرا العربي او الانجليزي شعر اقبال يشعر في قرارة نفسه واعماقه ، بانه يرضى ارضاء وافيا عشقه لفكرة الخلود . ولقد شعرت نفس الشعور حين اكتشفت اقبال واكتشفت شعره، وصرت اردده من حين لآخر ، وكلما عدت اليه وجدت متعة اخرى ولذة جديدة . وادعو القارىء الكريم لكي ينشد معي هذه الاغنية الصغيرة لاقبال ، الغنية بالحياة ، الثرة بالخلود .

حينمـــا يسفـر الصبــاح نديــا
ناصعـــا فى مواكـــب الاشـــراق

يغســل النـــور في المشـــارق اذ
ران الدجـــى عـــن حلـــة الآفـــاق

ويطيـــر الكرى وينتبـــه العشـــب
وتصحـــو عـــزائـــم الكائنـــات

ويهب الاحياء فى البـــر والبحـــر
ليستقبلوا عـــروس الحيـــاة

واذا كـــان للخلائـــق نامـــوس
يرينـــا الصبـــاح بعـــد المســـاء

فكذا تذهـــب الحيـــاة ولكـــن
بعد ليل الحمـــام صبـــح البقـــاء

لوحة زيتية رائعة تنبض بالحركة والحياة ، الصباح يبتسم ابتسامة عريضة ، وينسكب النور في المشارق ، مبددا عن الآفاق ما كساها من ظلام الليل ، ويطير النوم عن آماق الكائنات فيرقص العشب ويهب كل حي لاستقبال عروس الحياة ، تلك التي اشرقت لتضيء الكون وتعيد الحياة للكائنات ، يرى اقبال هذه اللوحة الرائعة ، فيعجب بها ، ويابى هذا الاعجاب الذي سطا على مشاعره الا ان يحرك ريشته ، فتهب هي ايضا لتعبر للناس عما راته نفس اقبال ، وما اعجب به من هذا الاسفار ، وذلك الاشراق ، وذلك الانبعاث الذي اصاب العشب وعزائم الكائنات ، وهبوب كل هؤلاء لاستقبال عروس الحياة .

لقد احسنت ريشة الشاعر رسم هذه الصورة النابضة بالحركة والحياة ، وبقي عليها ان ترسم ما في نفس الشاعر وما تحمله من نظرة عميقة لهذا الجمال وهذه الحياة ، وما استنتجته من ناموس الصباح بعد المساء ، ومن هذه الصورة كلها ، فرسمت ما في نفس الشاعر بوضوح وجلاء : ان كان في مسرح الكون فصل الصبح بعد فصل المساء ، فكذلك في مسرح حياتنا يأتي بعد فصل ليل الحمام فصل صبح البقاء .

هكذا احس اقبال بكل مشاعره وهو يلقي على مسامع الكون اغنيته في انتفاضة الصباح ، بان الروح الانسانية وما تحمل من قيم مثلى خالدة ، فانساب مع الفكرة بل مع شعوره بها وتقمصه لها انسياب الندى البليل مع الصبح العليل ، وغنى فاطرب نفسه واطرب مع نفسه انفسا اخرى عشقت الخلود واحبت البقاء .

وهكذا يكون اقبال ، بتغنيه بفكرة الخلود ، قد اسدى لكل من عشق الفكرة فضلا وفيرا وخيرا جزيلا ، اذ منحه الاغنية التي يترنم بها ويرتلها كلما اشتاقت نفسه الانسانية الى مثلها الاعلى ، وخير شكر بل خير اعتراف بجميل شاعر الخلود تؤديه الانسانية اليه ان تظل في اعماقها مترنمة بهذه الاغنية .

واذا كان للخلائق ناموس يريننا الصباح بعد المساء
فكذا تذهب الحياة ولكن بعد ليل الحمام صبح البقاء
عسى ان ان يحلق النشيد متصاعدا الى السماء
فيبلغ مسامع روح اقبال الخالدة .

الحث على العمل

جاء في الاثر ، ان رفقة كانوا في سفر ، فلما قدموا على النبي قالوا : ما راينا يا رسول الله بعدك افضل من فلان ، كان يصوم النهار ، فاذا نزلنا ، قام من الليل حتى نرتحل.
قال : فمن كان يعتني بامره ويكفله ؟

قالوا : كلنا .
قال كلكم افضل منه .

مائدة كريم

سئل ابو الحارث جمين عمن يحضر مائدة محمد بن يحيى ، وكان بخيلا ، فقال يحضرها: اكرم الخلق والأمهم . قيل ومن هم ؟ فقال الملائكة والذباب .

وسئل جحظة البرمكي عن دعوة حضرها فقال : كل شيء كان فيها باردا الا الماء .

تفـــاؤل

سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا، اراد ان يستعين به على عمل ، عن اسمه واسم ابيه . فقال الرجل : ظالم بن سراقة .
فقال : تظلم انت ويسرق ابوك ، ولم يستعن به في شيء .

الوضعية الثقافية في الجزائر

في مؤتمر اللجان الوطنية العربية التابعة لليونسكو ، الذي انعقد بفاس في أواخر شهر يناير المنصرم ، حضر بصفة غير رسمية ممثلون للشعب الجزائري الشقيق ، وبما انه كان من بين المواضيع التي اشتغل المؤتمر بدراستها ، موضوع التقدير المتبادل للقيم الثقافية بين الشرق والغرب ، فقد قدم ممثلو لشعب الجزائري للمؤتمر هذه المذكرة التي تتحدث عن الوضعية الثقافية في الجزائر ، ومدى تاثيرها على امكان وجود تقدير صحيح ومتبادل للقيم الثقافية بين الشرق والغرب .

من الاهداف الرئيسية لهذا المؤتمر كما هو معلوم، دراسة مشروع يرمي الى تيسير التقدير المتبادل للقيم الثقافية بين الشرق والغرب. وان تحقيق هذا المشروع البالغ الاهمية سيخطو بالانسانية خطوة حاسمة في سبيل التفاهم والتعاطف ومحو الاضغان والتنافس العقيم واسباب النزاع ، وسيكون من اقوى دعائم السلام الدائم المنشود ، وسيقرب البشرية من أعز اهدافها ، وهو اقامة حضارة انسانية عالمية تلتقي فيها ــ متآلفة متكاملة ــ مختلف الحضارات القومية والملية .

غير ان الدارس النزيه لهذا المشروع الهام يلاحظ ــ ولا مناص من ذلك ــ انه لا تزال هناك مشاكل قائمة تحول دون تحقيق هذا المشروع على وجه مرض وفي آجال معقولة . وان انعقاد هذا المؤتمر بالمغرب ، ومكانة المغرب العربي الكبير في ملتقى الطرق والمجاري الفكرية الواصلة بين الشرق والغرب ، يحتمان علينا ان نضع في طليعة هذه المشاكل ، مشكلة تدهور القيم الثقافية القومية الاصيلة في جزء هام من المغرب العربي ، ومن العالم العربي ؛ اعني الجزائر .

فقد اتفقت النتائج التي توصل اليها الباحثون الذين درسوا عن كثب الحالة الثقافية الراهنة في الجزائر، على ان الثقافة القومية الجزائرية قد بلغت دركة من الانحطاط والمسخ ، عديمة النظير في تاريخ الجزائر العربية ، وفي سائر البلاد العربية الشقيقة . وهذا الدرك المفزع الذي تردت فيه الثقافة القومية الجزائرية، هو نتيجة حتمية لخطة مدبرة محكمة ، كانت ولا تزال تستهدف ــ باعتراف واضعيها انفسهم ــ محو الثقافة القومية في الجزائر ، في شتى مظاهرها اللغوي والادبي والفكري والديني وحتى الفني .

ولسنا مذيعين سرا ان قلنا ان هذه الخطة اللاثقافية قد فرضت على الجزائر فرضا ، ابتداء من سنة 1830 ويكفي ان نقارن بين حالة الثقافة القومية في الجزائر قبل هذا التاريخ وبعده ببضع عقود ، لندرك مدى صحة هذا القول .

فقد جاء في مادة الجزائر في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الفرنسية) انه في سنة 1862 ، لم يبق من 179 مسجدا ومدرسة التي كانت قائمة مزدهرة في عاصمة الجزائر قبل 1830 ــ لم يبق منها ــ الا 48 فقط . اما بقية تلك الآثار الفنية والمراكز الثقافية فقد هدمت عمدا ، او نالها الخراب ، او حولت عن اهدافها الثقافية الى اغراض ادارية في غير صالح الامة.

كما جاء في تصريح المسيو كومب سنة 1902 امام مجلس الشيوخ الفرنسي قوله: «كانت الثقافة الاسلامية في الجزائر ، قبل سنة 1830 اقل تاخرا مما تعتقده السلط الفرنسية ، فان عدد المدارس والمعاهد الثانوية والعليا كان يفوق الالفين ، وكان مدرسون اكفاء غاية الكفاء يثقفون شبيبة مجتهدة جادة في التحصيل » .

واضاف المسيو (كومب) قائلا في حديثه عن المعاهد العلمية في تلمسان « كان جمهور كبير من الطلبة

يزدحم حول اعظم المدرسين شهرة . وكان لكثير من المدن الجزائرية الاخرى مدرسون يضاهون هؤلاء في الكفاءة. وكان معهد سيدي ابي مدين المؤسس سنة 1346 بتلمسان اشهر المعاهد العلمية في المغرب العربي » .

وفي هذا القطر المتمتع بثقافة عربية مزدهرة ، في هذا القطر الذي تعددت فيه المراكز الثقافية الشهيرة بتلمسان ومزونة والجزائر وقسنطينة ووهران وبجاية وميزاب ، جاء التدخل الاجنبي – كما يقول المؤلف الفرنسي بولار في كتابه عن التعليم القومي الجزائري – « محدثا اضطرابا عميقا في عالم المفكرين والمثقفين الجزائريين ، فاضطر الكثير من العلماء ان يتخلوا عن مناصب التدريس التي كانوا يحتلونها ، فلم يبق من المعاهد العلمية التي كانت تفوق الالفين قبل الاحتلال ، الا بضعة مدارس ابتدائية يتعلم فيها ما لا يزيد عن 30.000 طفل اي اقل من خمس عدد الطلبة قبل 1830 .

ولكي تضمن الادارة الاجنبية بالجزائر نتائج هذه الحملة التجهيلية في مدة وجيزة ، عمدت الى الاستيلاء على الاوقاف التي كان يصرف جانب عظيم من دخلها في نشر التعليم ، غير مكترثة في عملها هذا بالصبغة الدينية التي تكتسيها هذه الاوقاف ، وقاضية بذلك في آن واحد على اللغة العربية – الاداة الضرورية للثقافة القومية – وعلى الاستقلال الديني الاسلامي ورجاله الذين اصبحوا اعوانا لها تعينهم طبقا لمعايير خاصة بها ، لا علاقة لها بالتقوى والكفاءة والمعرفة ، بل بالصفات الخنوعية التزلفية ، او بكفاءات الوشاية البولسية التي تلمحها فيهم .

ويحسن بنا هنا ايضا ان نستشهد باقوال المؤلفين الفرنسيين في هذا الصدد ؛ فالمسيو (بيرك) مثلا يحدثنا في عدد 44 من مجلة البحر المتوسط عن (المفاتي) الذين عينتهم السلطة الاجنبية في الجزائر ، والذين كانوا – حسب قوله – يقومون في آن واحد بمهمة وشاة بوليسيين ، وهم فوق كل ذلك جهال طماعون لا ثقافة لهم بالمرة ولا يشبعون ابدا من الرشوات

وفي هذا الظلام اللا ثقافي المرعب ، الذي اسدله النظام الاستعماري على الجزائر ، اخذت سائر المظاهر الثقافية تذوي الواحدة تلو الاخرى، فالدراسات العربية منعت واصبحت لغة الضاد غريبة في موطنها ضائعة بين ابنائها ، والبحوث الاسلامية حرمت واضطهد من يجرؤ على العناية بها ؛ وقلبت القيم الخلقية والفلسفية والاجتماعية الاسلامية ، فاصبح الخضوع للسلطة الاجنبية ، والصبر على البؤس والشقاء توكلا على الله ورضى بقضائه يثاب عليه في الدنيا قبل الاخرة، وانقلبت ادنى الوشايات واقذرها فضيلة وطنية دينية ، وانحطت القيم الدينية ، وانحصرت في حركات تعبدية شكلية وصوفية مظهرية سخيفة ، هي اقرب الى الوثنية البدائية منها الى روح الاديان السماوية ، وظهرت طبقة من الكهنوت الانتهازي الجشع المتزلف ، يستغل الامة ويشلها ويخدرها ، ويخلص عمله للطغاة الاجانب دون الله .

اما الفن المعماري والنحت على الخشب ونقش الحجارة والموسيقى وغيرها من الفنون ، فقد نالها هي الاخرى نصيبها من المضايقات والاضطهاد ، على ان سياسة التفقير المدبر المطرد التي سنتها السلط الاجنبية ، جعلت من المستحيل على المواطنين ان يواصلوا نشاطهم المبدع في هذا الميدان ، اذ اضطروا الى تركيز اهتمامهم وجهودهم في طلب قوتهم اليومي الذي اصبح مهددا غير مضمون .

وهكذا سجنت العقلية الجزائرية في سجن مظلم محكم من الجهل والبؤس واللاثقافة خانق مميت .

الا ان الظلم الفكري وان كان مدبرا لا يدوم طويلا، خاصة عند شعب ذي ماض مشرف في ميدان الثقافة مثل الشعب الجزائري ؛ فبالرغم من الستار الحديدي المضروب حول الجزائر لعزلها عن شقيقاتها الناهضة ، وعن العالم المتمدن ، دوى صوت المصلح محمد عبده في اعماق الجزائر ، وحركت اقلام النهضة الفكرية في الشرق العربي اوتار قلب الامة العربية في الجزائر وانارت فكرها ، فظهرت حركة هجرة واسعة النطاق ، هجرة متعلمين متعطشين لما حرموا من الثقافة نحو مختلف البلاد العربية ، وخاصة مصر وتونس والمغرب، وكانت نتيجة هذه الهجرة ظهور نهضة ثقافية قومية منذ بعيد الحرب العالمية الاولى ، اهتمت بانشاء مدارس حرة من اموال المتبرعين من الامة ، مدارس كانت في حرب مستمرة مع السلط الاجنبية ، التي كانت كثيرا ما تعمد الى اغلاقها ، وهكذا بلغ عدد المدارس الحرة الى ما قبل الثورة 150 مدرسة يدرس فيها لا كثر من 50.000 تلميذ ، الا ان جل هذه المدارس قد اغلق اليوم واضطهد مدرسوها، وحتى طلبتها، واغتيل الكثير منهم ؛ كالشيخ العربي التبسي ، واحمد رضى حوحو ، وغيرهم .

تلكم كانت النتيجة المؤلمة التي وصلت اليها الثقافة القومية في الجزائر في عهد الاحتلال الاجنبي .

وازاء هذا القتل المدبر للثقافة القومية، نجد تقتيرا مدبرا للثقافة الدخيلة بين التلاميذ الجزائريين .

فبينما يدخل كل الاطفال الاوربيين الذين بلغوا سن الدراسة في المدارس الابتدائية الفرنسية ، لا يتمكن الا 15 في المائة فقط من الاطفال المسلمين من الحصول على نصيبهم من التعليم الابتدائي ؛ وفي المدارس الثانوية نجد 6.260 طالبا جزائريا ، مقابل 17.000 اجنبيا ، اما في التعليم العالي فلا نجد الا 557 طالبا جزائريا فقط مقابل 5.146 طالبا اجنبيا .

على ان نصيب الثقافة العربية في هذه المعاهد الاجنبية في سائر مراحلها الابتدائي والثانوي والعالي ، نصيب ضئيل جدا ، اذ تعتبر اللغة العربية لغة اجنبية كالاسبانية او الانجليزية مثلا . وتدريسها فيها امر رمزي ، قصد به الدعاية والتخدير اكثر من التثقيف الصحيح .

ويوجد بجانب هذه المعاهد الاجنبية ثلاث مدارس ثانوية فرنسية – عربية ، غير ان الثقافة العربية تقسط فيها تقسيطا ، اذ الغرض من هذه المدارس تخريج تراجمة وموظفين في الإطارات الثانوية او الدنيا من الادارات الفرنسية في الجزائر .

وازاء كل ذلك نجد اكثر 2.400.000 طفلا جزائريا بين السادسة والرابعة عشرة من اعمارهم ، لم يدخلوا مدرسة قط ، لعدم وجود مدارس عمومية تسعهم ، ولكون الادارة الاجنبية تمنع المواطنين من فتح مدارس حرة ، او تخضع هذا الفتح لرخص ادارية لاتمنحها الا تقتيرا ، ويتضخم هذا العدد كل سنة بزيادة 300.000 طفلا .

وهكذا يتضح من خلال هذا العرض السريع ، ان النظام الاستعماري القائم الآن في الجزائر هو اكبر عامل في تدهور الثقافة القديمة ، بل الثقافة بصفة مطلقة ، وانه يمنع الشعب الجزائري من المساهمة في تحقيق التقريب الفكري بين الشرق والغرب ، وفي تقدير القيم الثقافية الغربية ، اذ هو في وضعه الراهن، لا يرى من الغرب الا المستعمر ، ولا يرى في الغرب الا الجانب (الامبريالي) الذي يحتك به يوميا ، والذي جرحه في صميم كرامته القومية ، وآذاه ولا يزال يؤذيه فكريا ونفسانيا بل وحسيا. فالامة الجزائرية – وحالتها هذه – يستحيل عليها ان تتفهم القيم الحضارية الغربية ، وان تقدم للغرب وجها صحيحا للقيم الثقافية العربية الاسلامية ، وقد حطمها النظام الاستعماري تحطيما تاما كما راينا .

ونظرا لمكانة الجزائر في الشمال الافريقي وفي العالم العربي ، ونظرا لفداحة المحنة التي ابتليت بها الثقافة العربية في الجزائر والمثقفون الجزائريون ، فان الوضع الراهن في الجزائر الذي يستنكره كافة بناء الثقافة العربية ، وكافة انصار القيم الثقافية الانسانية ، يكون حجابا كثيفا يحول دون هذا التعاطف والتفاهم بين الثقافتين الغربية والشرقية ، تعاطفا وتفاهما ضروريين للتقدير المتبادل لهتين الثقافتين ، ويبعد الانسانية من عهد السلام والوئام الدائمين .

لذا نلاحظ – دون مجازفة – ان انهاء الوضع الراهن في الجزائر ، امر ضروري لتحقيق هدف التقارب الفكري ، وتقدير القيم الثقافية . وان هذا الهدف لا يتحقق في الجزائر الا في اطار من السيادة القومية والاستقلال ، يمكن الامة الجزائرية ذات الماضي الثقافي المشرف ، أن تهيء الظروف المادية والفكرية لانبعاث ثقافي في صالح الشرق والغرب معا ، وفي صالح السلام والتفاهم العالميين ، انبعاث نظير بالنهضة التي انجبت منذ قرون ابن خلدون ، وابن طفيل ، وابن رشد ، وغيرهم من بناة الترف الحضاري العالمي .

احصائيات نشرتها شخصيات فرنسية تتعلق بالوضعية الثقافية بالجزائر

الوظيفة العمومية : في الولاية العامة الفرنسية بالجزائر **2.000** موظف منهم **8** من الجزائريين فقط .

احصاء الطلبة في التعليم العالي بجامعة الجزائر (احصائيات سنة 1953 ، 1954)

	جزائريون		اجانب	
	ذكور	اناث	ذكور	اناث
الحقوق	176	3	1.133	395
الآداب	157	8	541	594
العلوم	59	3	512	248
الطب	61	5	593	173
الصيدلة	27	3	124	184

نسبة الطلبة في التعليم العالي من مجموع السكان:

فرنسا : طالب واحد لكل 300 مواطن

الجزائر : طالب واحد لكل 15.342 مواطن

احصاء طلبة الثانوي في الجزائر (سنة 1954) :

مجموع الطلبة : 23014

عدد الجزائريين : 6.260

فهرس العدد التاسع

صفحة

مطبعة فضالة ـ فضالة

دعوة الحق

انك تستطيع ان تساهم بنصيبك فى خلق وعي
ثقافي صحيح فى بلادك ، وذلك بأن تبعث باشتراكك
الى مجلة :
« دعوة الحق »

« **دعوة الحق** » تقدم لك فى كل شهر زادا فكريا نافعا ومفيدا .

« **دعوة الحق** » تحفة فى بيتك ، ومجلد سنوي لخزانتك وعلم
وادب وثقافة لك ، ولعائلتك .

« **دعوة الحق** » مجهود فكري يبذله شهريا من اجلك نخبة
العلماء والكتاب والشعراء بالمغرب .

« **دعوة الحق** » تجمعك شهريا بالكتاب الذين تحبهم ،
وتكشف لك باستمرار عن كتاب واصدقاء جدد .

احرص على أن تقرأ باستمرار مجلة :
« دعوة الحق »

ابعث باشتراكك الى مجلة « **دعوة الحق** » تصلك
مجموعة الاعداد التي صدرت من السنة الاولى
حتى الآن ، وتصلك باستمرار نسختك
من الاعداد المقبلة .

قيمة الاشتراك العادي : 1.000 فرنك

وللطلبة : 500 فرنك فقط

يبعث الاشتراك بالعنوان التالي :

الرباط ـ الشيك البريدي 55 ـ 485

دعوة الحق في خدمتك

نخيل ، وسماء صافية ،
وأرض خصبة ، وهندسة جميلة
وبناء متين .
كل ذلك يتمثل فى هذه الصورة
المأخوذة لقلعة من القلاع المنبثة
بوادي « تودرة » بالقرب من
« تنغير » ناحية جنوب الاطلس
الكبير .